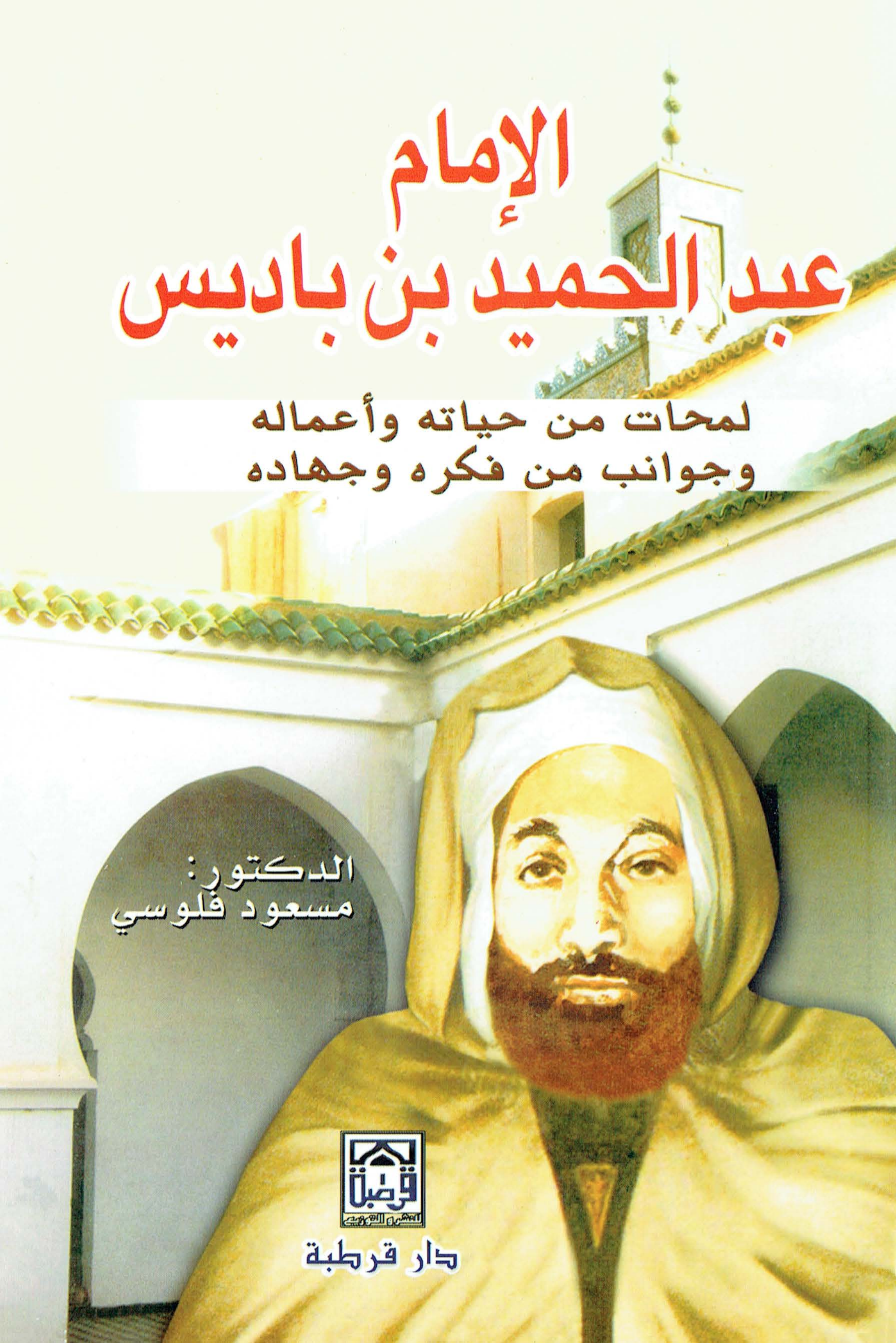


الإمام
عبد الحميد بن باديس
لمحات من حياته وأعماله
وجوانب من فكره وجهاده
الدكتور:
مسعود فلوسي
قرطبة
دار قرطبة

الإمام عبد الحميد بن باديس

لمحات من حياته وأعماله
وجوانب من فكره وجهاده

تأليف:
الدكتور مسعود بن موسى فلوسي
أستاذ بكلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية
جامعة باتنة - الجزائر

دار قرطبة



الطبعة الأولى

1426هـ - 2006م

رقم الإيداع القانوني:3276 – 2006 : DL
ردمك:8-15– 812 - 9961 :ISBN

دار قرطبة للنشر والتوزيع

قطعة 68، طريق المندرين. المحمدية - الجزائر

TEL : 061-50-17-63

Email : Kortoba_dz@hotmail.com

الإمام عبد الحميد بن باديس

لمحات من حياته وأعماله
وجوانب من فكره وجهاده

• بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ •

«مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً».

(قرآن كريم)

«النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً».

(حديث نبوي شريف)

"يموت العظماء فلا يندثر منهم إلا العنصر الترابي الذي يرجع إلى أصله، وتبقى معانيهم الحية في الأرض، قوة تحرك، ورابطة تجمع، ونورا يهدي، وعطرا ينعش. وهذا هو معنى العظمة، وهذا هو معنى كون العظمة خلودا".

(الإمام محمد البشير الإبراهيمي)

المقدمة

النماذج الفذة من الرجال في تاريخ الشعوب والأمم والحضارات قليلة ونادرة، وهي على قلتها وندرتها، تتفاوت فيما بينها من حيث ما تحمله من رسالات أو تؤديه من مهام. وهذا التفاوت إنما يرجع إلى ما ينفرد به كل إنسان من خصائص فردية يستمدها من أصوله الاجتماعية وبيئته الإنسانية التي يولد فيها ويترعرع بين أحضانها، ويرجع كذلك إلى مدى ما يلزم به نفسه من عمل لصالح أمته وما يبذله من تضحيات ويقفه من مواقف في سبيل هذا العمل.

ومع أن تاريخ الشعب الجزائري يحفل بأسماء رجال عظام سجلوا أسماءهم بأحرف من نور في السجل التاريخي لهذا الشعب، إلا أن ألمع هؤلاء وأكثرهم تأثيرا في تاريخ هذا الشعب وفي مسيرته الحضارية بلا منازع، بما أحدثه من ثورة هائلة في النفوس والأوضاع، وما انطلق منه من مبادئ، وما توخاه من أهداف، هو- لا شك - رائد النهضة الإصلاحية الحديثة في الجزائر والمغرب العربي، الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله.

إن الله عز وجل يصطفي من عباده خيارهم، ليؤدوا المهمات الصعبة والمصيرية. فهناك مهمات لا يصلح للقيام بها كل الناس، كما لا يصلح أن يقوم بها كل خيار الناس، وإنما يقوم بها فقط قلائل من هؤلاء الخيار. ولقد كان ابن باديس أحد هؤلاء. كما أن المهمة التي اختاره الله لها كانت من أعقد المهمات.. نعم، وأي مهمة أعقد وأخطر من أن تتناول مسار شعب بأكمله فتغير اتجاهه، وتعمد إلى نفوس أبنائه وأوضاعهم في الحياة فتقتلع منها ما يرين عليها، لتُعيد تشكيلها من جديد بخصائص جديدة وأوضاع جديدة، لتصب في مسار جديد غير الذي كانت تصب فيه؟!

لقد قضت إرادة الله عز وجل أن يبرز الإمام عبد الحميد بن باديس إلى الدنيا ويعيش فيها خلال فترة هي من أحلك فترات مسار تاريخ الشعب

الجزائري، فترة بلغ فيها من سطوة الاستعمار وإحكامه لقبضته الحديدية على خناق هذا الشعب وسده أمامه كل منفذ إلى الحرية والانعتاق، وحرمانه له من أي حق إنساني، أن كاد يقتنع معه كامل أفراد هذا الشعب أنهم قد أصبحوا ـ وإلى الأبد ـ رهن قبضته، يوجه مصيرهم حيث يشاء، ويوقع عليهم من القرارات والمؤثرات ما يشاء.

لقد حارب الاستعمار في الجزائريين العروبةَ حتى ظُن أن قد مات منهم عرقها، ومسخ فيهم نطقها... وحارب فيهم الإسلامَ حتى ظُن أن قد طمست أمامهم معالمه وانتُزعت منهم عقائدُه ومكارمُه... وحارب فيهم العلمَ حتى ظُن أن قد رضوا بالجهالة، وأخلدوا للنذالة، ونسوا كل علم إلا ما يشرح به لهم، أو ما يمزج بما هو أضر من الجهل عليهم... وحارب فيهم الفضيلةَ، فسِيموا الخسفَ، ودُيِّثُوا بالصَّغَار، حتى ظُن أن قد زالت منهم المروءة والنجدة، وفارقتهم العزة والكرامة، فرئموا الضيم ورضوا الحيف، وأعطوا بالمقادة... كما عبر الإمام نفسه.

ولقد كانت المهمة التي تصدى لها ابن باديس وعمل على تحقيقها هي أن يقتلع الشعور بالهوان من نفوس الجزائريين تجاه هذا الوضع ويعيد إقناعهم أنه مجرد وضع طارئ لا يلبث أن يزول ويحل محله الوضع الطبيعي اللائق إذا توافرت الهمم وصحت العزائم.

وفي سبيل أداء هذه المهمة شمر الإمام ابن باديس عن ساعد الجد وترك الراحة والرفاهية ووطد العزم، ولقد كان أول ما فكر فيه هو البحث عن أي السبل يمكن من خلالها الوصول إلى تحرير هذا الشعب من هذا الذل وهذا الهوان الذي يرزأ تحت أنقاضه، فقاده تفكيره إلى أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الأمة مما حاق بها هي إحياء مقوماتها التي حاربها الاستعمار وحاول أن يُميتَها فيها، وهذه المقومات هي الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة.

لقد أدرك ابن باديس أن الأمة كانت في وضع لا يمكنها معه أن تواجه الاستعمار مواجهة ثورية مباشرة، فما تعانيه من ضعف وهوان وغفلة عن

المبادئ والقيم، كل ذلك كفيل بأن يجعلها تتحطم أمامه عند أول ضربة، لذلك اختار الوسيلة الأنجع والأكثر فعالية، وهي المواجهة الثقافية، بإحياء مقومات الشعب وقيمه الحضارية في نفوس أبنائه أولا، ثم لا خوف عليه بعد ذلك لأنه سيدرك لا محالة أنه مُهان وأنه مهضوم الحقوق، وحينئذ فلن يحتاج إلى من ينبهه إلى سبيل تحصيل هذه الحقوق.

لذلك اختار الإمام تربية النشء وبث الوعي في النفوس قبل التفكير في أي شيء آخر.. اختار رحمه الله أن يدعو شعبه إلى أن يعود إلى دينه، إلى إسلامه الذي كرمه الله به.. هذا الإسلام الذي لم يكن ابن باديس يرى مستقبلا آخر للجزائر خارج دائرته، وهو وحده الذي تُبنى عليه شخصية الشعب الجزائري، وهو الذي يشكل الحصن الحصين لهذه الشخصية ضد كل تهديد من أي مصدر كان.

وهو ما جعل ابن باديس يدعو المسلمين الجزائريين إلى فقه دينهم هذا حق الفقه والعمل به حق العمل، لأن ما هم عليه من سلوك لا يتطابق في أكثر الأحيان مع حقيقة الإسلام الصحيح.

ولقد رأى ابن باديس أن الفرد هو أساس الإصلاح والتغيير، وإصلاح الفرد يبدأ من إصلاح دخيلته، بتصحيح عقيدته وتقويم خلقه.

وهذه النظرة التي كان ينظر بها ابن باديس إلى الفرد نابعة من المكانة التي يتبوؤها في كيان الأمة، من حيث أن أي خلل يطرأ عليه سيؤثر حتما في كيان الأمة.

لأجل ذلك انصب جهده عليه رحمة الله على تكوين جيل مسلح بعقيدة إسلامية صافية، ووطنية صحيحة عمادها حرارة الإيمان ووضوح الهدف. وقد تسلح الرجل لأداء هذه المهمة بالإيمان الخالص الصادق، والعلم الشامل المستوعب لأصناف شتى من العلوم.

وفي كل ما أعلنه ابن باديس أو أسَرَّه من أقوال ومواقف، لم يكن مجرد حامل شعارات يدعو الناس إلى شيء ربما لا يؤمن هو به، وإنما كان رَجُلَ عَمَلٍ قبل أن يكون رجل قول.. كما لم يكن مجرد ثائر يعبئ النفوس

ويدفع بها لمجابهة الصعاب والعقبات دون حساب للعواقب والنتائج، وإنما كان عالما يدرك بدقة طريق التحرر والانعتاق، وأنه طريق طويل شاق لا يفضي إلى نهايته في لحظة من الزمن أو بقفزة من القفزات.

إن الذي نود أن ننبه إليه بعد هذا المدخل أن الإمام ابن باديس رحمه الله ينبغي أن ننظر إليه باعتباره رجلا يمثل فكرة ومنهجا، لا أن نسرد تفاصيل حياته عند كل مناسبة ونذكر المبادئ التي عاش بها والأهداف التي ناضل لأجلها كما تُسرد القصص والحكايات لغرض الترفيه وتزجية الوقت وملأ الفراغ فحسب.. فإذا لم يكن لنا من هدف من تذكر ابن باديس ومآثره سوى هذا الغرض، فَتَعْساً به من هدف.

فالجزائر التي تعيش اليوم وضعا محرجا، وتعاني ضنكا متتابعا، ينبغي لها أن تبحث في منهج ابن باديس ومبادئه التي أقام عليها دعوته، لتنهل منها ما يمكنها من النهوض من كبوتها ويعيد لها عافيتها.

ومنهج ابن باديس كان قائما على المزاوجة بين العمل في سبيل الإسلام والعمل في سبيل الوطن، ولم يكن يرى أن هناك ــ أبدا ــ أي تعارض بين العمل للهدفين معا.. بل إن الهدفين متكاملان ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، لأن العمل في سبيل تحرير الوطن هو عمل بالضرورة يخدم الإسلام، والعمل للإسلام هو كذلك بالضرورة عمل للنهوض بالوطن والتقدم به.

وإذا كان ابن باديس قد عمل على إذكاء روح التحرر في نفوس الجزائريين بما بثه من شعور بالاستقلال الحضاري عن فرنسا وبإمكانية الاستقلال السياسي والاقتصادي عنها، مما جعلهم ينهضون بعد ذلك لتحرير بلادهم من الاستعمار والهيمنة الأجنبية. فإنه قد عمل كذلك على بث الفهم الصحيح للإسلام، باعتباره دين العلم والقوة والسلام والحضارة والتقدم، وأن مبادئه تتعارض تماما مع كل أنواع الدروشة والطرقية وكل ما من شأنه أن يشوب صفاء هذا الدين ويجعل نظرة الناس إليه خاطئة أو غير صحيحة.

لقد عاش ابن باديس وكافح طيلة حياته لأجل غرضين اثنين: الإسلام والجزائر[1].. وباستهدافه لهذين الغرضين استطاع أن ينجز ــ مع إخوانه العلماء ــ مهمة تنوء بها الجمعيات الكبيرة والمؤسسات الضخمة.. ولم يكن ليحقق ذلك كله لولا الصدق مع الله والتضحية في سبيله دون انتظار لأي أجر أو جزاء، ولقد كان الرجل قادرا أن يداهن فرنسا فتعطيه ـ اتقاء لشره ــ ما يشاء من متع وما يطلب من مناصب، وكان بإمكانه أن يعيش لنفسه كما يعيش أكثر الناس، ولكنه اختار الإسلام والجزائر.

وقد دعاه ذلك إلى أن يلغي كل حظوظ نفسه، ويحرم نفسه من التمتع بطيبات الحياة في احتساب عجيب.

لا شك أن هناك رجالا كثيرين خدموا الإسلام والجزائر وضحوا في سبيلهما بالغالي والنفيس، لكنهم لم يبلغوا ما بلغه ابن باديس من التضحية ونكران الذات وعدم المبالاة بما كان يلقاه في عمله للإسلام وللجزائر من عقبات وتحديات تنوء بها الجبال.. لأجل ذلك ــ وحده ــ استحق ابن باديس أن يرفع التاريخ شأنه، فيدرج اسمه في قائمة رجاله العظام، ويملي اسمه على ذاكرة الأجيال، فتتناقل مآثره وأعماله وجوانب عظمته جيلا بعد جيل.

فكل من يدعي اليوم أنه يحب الإسلام والجزائر، فعليه أن يبرهن بقوله وعمله كما برهن ابن باديس من قبلُ بقوله وعمله، وإلا فإن كلامه سيبقى مجرد شعارات لا تسمن ولا تغني من جوع، ولن يكون لها في واقع الجزائريين وحياتهم ومستقبلهم أي تأثير.

وبعد: فهذا جهد جديد متواضع نقدمه عن فكر وجهاد هذا الرجل الجليل، وهو يضم بين دفتيه ثلاثة فصول:

يتعلق الفصل الأول منها بعرض شامل قدر الإمكان ـ لكن بصفة موجزة ـ لحياة ومجمل أعمال الإمام الجليل.

ويتعلق الفصل الثاني بدراسة حول فقه المقاصد الشرعية عند الإمام عبد الحميد بن باديس، وهو الفقه الذي أعتبره الأساس الذي صدرت عنه كل

---

1 ـ انظر مقالا له بعنوان (لمن أعيش؟)، الشهاب، شوال 1355 هـ، يناير 1937 م.

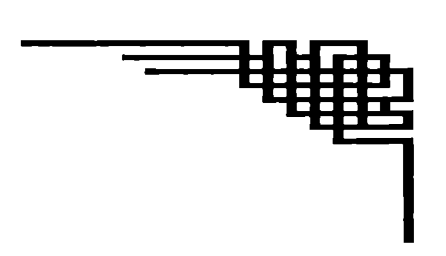
أعمال وأفكار الإمام طيلة سنوات جهاده في التعليم والصحافة والسياسة.

أما الفصل الثالث والأخير، فهو عرض لفكر ابن باديس في شأن قضية الوحدة الوطنية وتتبع لجهاده العملي في إطار المحافظة على مقومات هذه الوحدة.

وأشير هنا إلى أن هذه الدراسات الثلاثة قد كتبت في فترات متقطعة ومتباعدة، وكنت نشرت بعضا من فقراتها في بعض الصحف والمجلات الجزائرية في السنوات الماضية، وقد عملت اليوم على جمعها بين دفتي كتاب واحد، لعلها تكشف للقارئ الكريم عن جوانب ربما يجهلها من حياة الإمام الجليل، أو يعرفها ولكنه لم يطلع على شواهدها، فلعله يجد في هذا الكتاب بغيته منها. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل..

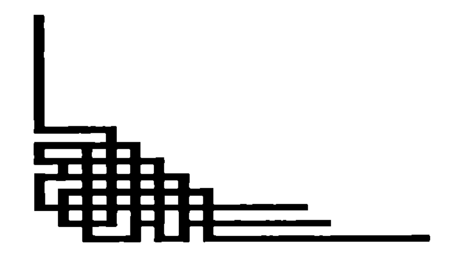
د. مسعود فلوسي

باتنة



الفصل الأول

لمحات من حياة وأعمال
الإمام عبد الحميد بن باديس



لمحات من حياة وأعمال
الإمام عبد الحميد بن باديس

مولده وأسرته:

ولد عبد الحميد بن باديس، بمدينة قسنطينة ليلة الجمعة ١١ من شهر ربيع الثاني من سنة ١٣٠٧ هـ، الموافق لـ: ٤ ديسمبر ١٨٨٩ م. وكان الإبن البكر لوالديه الكريمين، فوالده هو السيد محمد المصطفى بن مكي بن باديس، الذي كان حافظا للقرآن الكريم عارفا بالضروري من علوم الدين، وكان يشتغل بالتجارة والفلاحة، ويعد من أعيان قسنطينة وسراة أهلها وكان ذا وجاهة سياسية، عضوا في المجلس الجزائري الأعلى والمجلس العام، بالإضافة إلى عضويته في مجلس العمالة، وكان محافظا في مظهره وملبسه، يحب العلم والعلماء، وكان رحماني الطريقة. أما أمه فهي السيدة زهيرة بنت علي بن جلول، من أسرة اشتهرت بالعلم والتدين[1].

وهذه الأسرة التي ينتمي إليها ابن باديس، تنحدر من العائلة الصنهاجية التي سطع نجمها في ميدان الإمارة والملك بالمغرب الأوسط في القرن الرابع الهجري، وكان من أبرز رجالاتها الأمير زيري بن مناد بن منقوش (ت: ٣٦٠ هـ ـ ٩٧١ م) أمير صنهاجة التلية، ثم ابنه يوسف بن زيري الملقب بـ(بلكين) (ت: ٣٧٣ هـ ـ ٩٨٤ م) الذي استخلفه المعز لدين الله الفاطمي على كامل المغرب بعد رحيله إلى مصر.. كما كان من رجالات هذه الأسرة أيضا المعز لدين الله بن باديس (ت: ٤٥٤ هـ) الذي أعلن مذهب السنة والجماعة مذهبا للدولة سنة ٤٠٤ هـ، ومنفصلا بذلك عن الدولة الفاطمية التي كانت تدين بالمذهب الشيعي الباطني..

ومن أسلاف ابن باديس المتأخرين؛ جده لأبيه الشيخ المكي بن باديس، الذي كان قاضيا مشهورا بمدينة قسنطينة، وقبله النائب الشهير والقاضي

1 ـ انظر: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، لعبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، نشر: دار الأمة ـ الجزائر. ط: 1، 1998 م، ص: 26.

أيضا أبو العباس احميدة بن باديس[2].

مما يدل على أن أسرة ابن باديس كانت أسرة عريقة في المجد والسؤدد والمكانة البارزة في تاريخ المجتمع الجزائري.

نشأته وطلبه للعلم:

نشأ ابن باديس في أحضان هذه الأسرة العريقة في العلم والجاه، وكان والده مهتما به أشد الاهتمام محبا له أشد الحب، يعطف عليه ويتوسم فيه النباهة، فحرص على تربيته تربية إسلامية خاصة، فلم يدخله المدارس الفرنسية كبقية أبناء العائلات المشهورة، بل أرسل به إلى الشيخ المقرئ محمد بن المداسي، فحفظ عليه القرآن وأتقن تجويده، وعمره لم يتجاوز الثالثة عشرة.

ولما رأى الشيخ محمد بن المداسي ما أبداه تلميذه عبد الحميد بن باديس من نجابة وذكاء مميزين، قدمه لإمامة الناس في صلاة التراويح لمدة ثلاث سنوات، في الجامع الكبير[3].

وبعد أن أتم حفظ القرآن الكريم سنة ١٩٠٣ م، وجهه والده إلى المربي الكبير والعالم الجليل الشيخ حمدان الونيسي، فتلقى عنه العلوم العربية والإسلامية ومكارم الأخلاق. وقد تجاوز به هذا الشيخ حد التعليم المعهود من أمثاله، إلى التربية والتثقيف والأخذ بيده إلى الغايات المثلى في الحياة[4].

زواجه:

عندما بلغ عبد الحميد بن باديس الخامسة عشر من عمره، زوجه والده من إحدى قريباته، وقد رزقه الله منها ولدا سماه إسماعيل، عاش حتى حفظ القرآن، وقبل أن يوجهه أبوه إلى طلب العلم، توفي في حادث مفاجئ في ١٥

2. لمزيد من التفاصيل عن أسرة ابن باديس، ينظر: الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية، للزبير بن رحال، دار الهدى - عين مليلة (الجزائر)، ص: 3 - 5.

3 - انظر: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، لتركي رابح، ص: 162.

4 - انظر: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، لابن باديس، ص: 475.

من رمضان عام ١٣٣٧ هـ، الموافق لـ ١٤ جوان ١٩١٩ م[5].

ولم تدم العشرة بين ابن باديس وزوجته بعد ذلك، بل وقع الانفصال بينهما وذهب كل منهما إلى حال سبيله. ولم يفكر بعدها في الزواج من غيرها، لأنه آثر التفرغ لما نذر له نفسه من عمل في سبيل إصلاح الأمة وإنقاذها من مخالب الاستعمار.

التحاقه بجامع الزيتونة بتونس:

في سنة ١٩٠٨ م، هاجر الشيخ حمدان لونيسي إلى المدينة المنورة للاستقرار بها بعدما ضاق من الحياة تحت وطأة الحكم الاستعماري الطاغي، وقد حاول تلميذه ابن باديس أن يلتحق به هناك، فمنعه والده من ذلك، وكان عمره آنذاك لا يتعدى التسعة عشر عاما.

لكن الوالد لم يلبث أن أذن لابنه بالسفر إلى تونس لطلب العلم بجامع الزيتونة، التي التحق بها سنة ١٩٠٨ م، تاركا زوجه وولده في كفالة أبيه، وظل بها مدة ثلاث سنوات كاملة يأخذ عن شيوخها ما عندهم من العلوم الإسلامية، إضافة إلى ما كان يحصله من علم خارج أوقات الدراسة إلى أن تشبع بمختلف فروع العلوم الإسلامية[6].

ويحدثنا رحمه الله عن دأبه في التحصيل وحرصه على المطالعة وشغفه بالاستزادة من العلم خلال تلك المرحلة من حياته، فيقول:

«كنت أسهر الليالي للدراسة والمطالعة، مستعينا ببعض المنبهات، لكني حين أحس أن النوم يغالبني ولم تعد المنبهات تنفع في دفعه، عمدت إلى مطرح أضعه على الأرض وأضع مرفقاي على الأرض أو أحدهما فيلامس الآجرّ باردا فأستيقظ وأجدد مطالعتي أو مراجعتي حتى أفرغ منها»[7].

5ـ إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، لعبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، ص: 27.

6ـ م. ن، ص: 27.

7ـ نقل هذا الكلام على لسان الإمام، تلميذه الأستاذ أحمد بن ذياب، في مقال له بعنوان: «ابن باديس في ذكرى وفاته السادسة والثلاثين»، مجلة الأصالة، العدد: 32، ربيع الثاني 1396 هـ ـ أبريل 1976م.

كان من أساتذة ابن باديس الذين أخذ على أيديهم العلم في الزيتونة؛ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الذي لازمه قرابة الثلاث سنوات، وأخذ عنه الأدب العربي وديوان الحماسة لأبي تمام، وهو ما كان سببا لحبه للأدب والتفقه في كلام العرب[8].. وكذلك أستاذه الشيخ محمد النخلي القيرواني، الذي درس على يده التفسير، واستفاد منه التحرر من ربقة التقليد الذي لا فكر فيه ولا نظر[9].. ثم أستاذه البشير صفر، الذي كان من أشهر أساتذة التاريخ العربي والإسلامي في الزيتونة، وقد كان له الفضل في اطلاع ابن باديس على تاريخ الأمة العربية الإسلامية[10]. كما كان من أساتذته أيضا، كل من: الشيخ محمد الصادق النيفر قاضي الجماعة، والعلامة محمد الخضر بن الحسين الجزائري التونسي، والمفتي محمد بلحسين النجار، والشيخ سعيد العياضي الجزائري، والأستاذ محمد بن القاضي[11]..

وقد أنهى ابن باديس دراسته في الزيتونة بعد ثلاث سنوات، نال بعدها شهادة التطويع سنة ١٩١١ م، وذلك بعد نجاحه في امتحان التخرج نجاحا باهرا، إذ حصل على الرتبة الأولى ضمن قائمة جميع الناجحين في تلك الدورة، وكان الطالب الجزائري الوحيد الذي تخرج في دفعة تلك السنة[12].

جدير بالذكر أن نظام الدراسة في الزيتونة قبل السنة التي التحق فيها ابن باديس، كان ينص على أن المدة التي يقضيها الطالب لنيل أعلى شهادة هي سبع سنوات، ولكن يسمح للطالب المتمكن - بعد إجراء امتحان له - أن يتجاوز سنوات ويوضع في الصف الذي يؤهله له هذا الامتحان. غير أنه في

---

8 ـ انظر: آثار ابن باديس، ج: 3، ص: 271 ـ 272.

9 ـ انظر: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 475 ـ 476. وآثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج: 4، ص: 46.

10 ـ آثار الإمام ابن باديس، ج: 4، ص: 317.

11 ـ الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية، للزبير بن رحال، ، نشر: دار الهدى ـ عين مليلة، ط: 1، 1997 م، ص: 12.

12 ـ انظر: إمام الجزائر، لمحمد الصالح رمضان وعبد القادر فضيل، ص: 28.

السنة التي سافر فيها ابن باديس ألغي هذا النظام، فأدى ذلك إلى إثارة طلاب الزيتونة، فتراجعت إدارة الجامع عن المرسوم، وأجلت تطبيقه إلى السنة القادمة، مما أتاح لابن باديس فرصة الالتحاق بالسنة الخامسة مباشرة، بعد أن أجري له امتحان، فلم يدرس في جامع الزيتونة إلا ثلاث سنوات نال بمقتضاها شهادة التطويع[13].

وقد كان من عادة الخريجين في ذلك الوقت، أن يمكث الواحد منهم سنة أخرى في جامعته يدرس فيها سنة كاملة بعد تخرجه، وذلك ما جرى عليه ابن باديس، حيث بقي في تونس سنة أخرى يلقي خلالها دروس العلم بجامع الزيتونة إلى جانب أساتذته[14].

عودته إلى قسنطينة وانتصابه للتعليم في مساجدها:

في سنة ١٩١٣ م، عاد ابن باديس إلى مسقط رأسه قسنطينة، وقد استقبله أبوه في محطة القطار كما يُستقبل العلماء والأعيان، إذ كان مغتبطا أشد الاغتباط بنجاحه وبعودته، ولما انتهيا إلى المنزل صاح الأب بزوجته قائلا: (آن لك أن تزغردي يا أم عبد الحميد فقد عاد ابنك عالما ليرفع من قيمة عائلته وأمته، ويزيدهما مجدا وشرفا)، فأطلقتها الأم زغرودة عالية دوت أصداؤها في أرجاء البيت الفسيح. وقد أثَّرَ هذا الاستقبالُ في نفس الشيخ عبد الحميد أيما تأثير، وظل يذكره بكثير من الفخر والامتنان والاعتزاز[15].

بمجرد أن استقر به المقام في قسنطينة، شرع الشيخ عبد الحميد في إلقاء الدروس العلمية في الجامع الكبير، عائدا بالأمة المحرومة إلى هدي القرآن والسنة.

---

13 ـ الحركة الأدبية والفكرية في تونس، لمحمد الفاضل بن عاشور، ص: 45. والنقل هنا عن: الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية، للزبير بن رحال، ص: 12.

14 ـ انظر: عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، لمازن صلاح مطبقاني، نشر: دار القلم ـ دمشق، ط: 2 1420 هـ ـ 1999 م، ص: 31.

15 ـ إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، لمحمد الصالح رمضان وعبد القادر فضيل، ص: 29.

وقد ابتدأ بتعليم أطفال الكتاتيب القرآنية بعد انتهاء فترتي الدوام الصباحية والمسائية في كُتَّاب (سيدي فتح الله) الذي كان يعلم فيه محبه ومريده (صالح الجنّان)، وفي كُتَّاب الزاوية القادرية (جامع سيدي عبد المؤمن)، الذي تعلم فيه سابقا، وكلاهما في قلب المدينة القديمة[16] .

ثم لم يلبث الشيخ ابن باديس أن توجه لتعليم أفراد الشعب سنة ١٩١٣ م، عن طريق إلقاء دروس مسجدية، وكانت البداية من الجامع الكبير، حيث بدأ يُدَرِّسُ لبعض الطلبة، معتمدا كتاب (الشفا في تعريف حقوق المصطفى) للقاضي عياض، أما العامة فكان يقدم لهم دروسا في الوعظ والإرشاد.

لكن طريقة ابن باديس الجديدة في التدريس، لم تَرُقْ لحساده، فسرعان ما قام الشيخ المولود بن الموهوب مفتي قسنطينة والإمام الخطيب في هذا المسجد بمنعه من مواصلة التدريس، بحجة أنه لا يملك إذنا بذلك، مع أنه كان يملك الإذن في الحقيقة. ولما لم يتوقف الشيخ عبد الحميد عن التدريس، كلف المفتي من يشوش عليه ويطفئ المصابيح وقت الدرس، ولكن الشيخ عبد الحميد لم يستسلم وكلف طلابه أن يحضروا الشموع ليدرسوا تحت ضوئها. لذلك استشاط المفتي غضبا، فأمر أحد أتباعه بالتصدي له ومنعه، فجاء وأطبق دفتي الكتاب أمام المدرس الشيخ عبد الحميد، وأطفأ الشموع، وكادت تقع فتنة بينه وبين الطلاب، في بيت الله، إلا أن الشيخ ابن باديس هدأ الأمور وصرف تلاميذه[17] .

رحلته إلى المشرق العربي:

لم يطل العهد بابن باديس في التدريس بالجامع الأخضر، بعد ما واجهه من عقبات، إذ لم يلبث أن عاد عشية الحرب العالمية الأولى إلى تونس حيث تابع تحصيله العلمي في الزيتونة لبعض الوقت، وما إن أقبل موسم

---

16 ـ إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، لمحمد الصالح رمضان وعبد القادر فضيل، ص: 29.

17 ـ م. ن، ص: 31.

الحج، حتى هفت نفسه للحج إلى بيت الله الحرام وزيارة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، فشد الرحال إلى البقاع المقدسة.

عند وصوله إلى هناك التقى بأستاذه الشيخ حمدان لونيسي الذي أشار عليه بالهجرة إلى المدينة المنورة، كما التقى بعالم الهند الكبير الشيخ حسين أحمد المدني، هذا الأخير نصحه بالعودة إلى وطنه الجزائر وخدمة الإسلام والعربية فيها بقدر الجهد، ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

وفي ذلك يقول رحمه الله: «أذكر أني لما زرت المدينة المنورة، واتصلت فيها بشيخي الأستاذ حمدان الونيسي، المهاجر الجزائري، وشيخي حسين أحمد الهندي، أشار عليَّ الأولُ بالهجرة إلى المدينة المنورة وقطْع كل علاقة لي بالوطن، وأشار عليَّ الثاني ـ وكان عالما حكيما ـ بالعودة إلى الوطن وخدمة الإسلام فيه والعربية بقدر الجهد، فحقق الله رأي الشيخ الثاني، ورجعنا إلى الوطن بقصد خدمته»[18].

وخلال فترة بقائه في البقاع المقدسة، التي دامت ثلاثة أشهر، ألقى الشيخ ابن باديس دروسا عديدة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم[19]. كما كانت له لقاءات مع المفكرين والعلماء الذين تحاور معهم، واطلع منهم على أحوال المسلمين في البلاد الإسلامية الأخرى، وقد كانت تلك اللقاءات سبيله الممهدة إلى التأثر بالحركة الإصلاحية التي انتشرت في الحجاز بفعل جهود الإمام محمد بن عبد الوهاب، والتفاعل مع الحركة الإصلاحية التي انتشرت على يد الإمام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا، اللذين تأثرا بدورهما بزعيم المصلحين جمال الدين الأفغاني[20].

وأثناء تواجده بالمدينة المنورة وقف أمام قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وعاهده على العمل في سبيل الله وتسخير حياته لخدمة الدين، وذلك ما

---

18 ـ مجلة الشهاب، م: 13، ج: 8، عدد أكتوبر 1937 م. والنقل هنا عن: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، لتركي رابح، ص: 171 ـ 172.

19 ـ انظر: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، للدكتورتركي رابح، ص: 171. عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، لمصطفى محمد حميداتو، ص: 65.

20 ـ إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، لمحمد الصالح رمضان وعبد القادر فضيل، ص: 32.

يحكيه عن نفسه، فيقول:

«وقفت وقفة إجلال وخشوع أمام قبر محمد وصاحبيه، وأحسست أني قد تجردت يومئذ من كل شوائب البشرية، وأصبحت روحا صافية طاهرة، وغابت عني كل ملابسات الزمان والمكان، وخاطبت روح محمد صلى الله عليه وسلم، وكأنني أراها، فقلت: يا رسول الله، هذا عهد بيني وبينك، لأعيشن في سبيل دينك وأمتك مجاهدا، ولأموتن في سبيل دينك وأمتك شهيدا، والله على ما أقول وكيل»[21].

وقد التقى في الحجاز بِتِرْبِه ومواطنه ورفيق دربه بعد ذلك الشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي، حيث تبادلا في لقاءات عديدة وجهات الرأي والنظر في أوضاع الجزائر المتردية من جميع النواحي، وفي وسائل العمل من أجل النهوض بها من الكبوة التي أوقعها بها الاستعمار ورجال الطرقية.

ويصف الإبراهيمي اجتماعاته ولقاءاته بابن باديس خلال تلك الفترة، فيقول: «كنا نؤدي صلاة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي ونخرج إلى منزلي، فنسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد، فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم نفترق إلى الليلة الثانية إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة المنورة. كانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدابير للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع للبرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلها صورا ذهنية تتراءى في مخيلت[هما]، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة»[22].

بعد انتهاء موسم الحج؛ انتقل ابن باديس من الحجاز إلى فلسطين

---

21 ـ نقل هذا الكلام على لسان الإمام، الأستاذ أحمد توفيق المدني في مقال له بعنوان: عبد الحميد ابن باديس الرجل العظيم، في مجلة الأصالة، السنة السادسة، العدد: 44، ربيع الثاني 1397 هـ ـ أبريل 1977 م، ص: 63.

22 ـ آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: 1، 1997 م، ج: 5، ص: 278.

حيث زار المسجد الأقصى في القدس[23]، ومر منها إلى دمشق ولبنان، ثم سافر إلى مصر حيث لقي في الإسكندرية كبير علمائها الشيخ أبا الفضل الجيزاوي الذي أصبح من بعد شيخا للأزهر، فتعارفا وتذاكرا وأعطاه إجازة، كما لقي في القاهرة مفتي الديار المصرية الشيخ محمد بخيت المطيعي زميل الشيخ محمد عبده وحامل أفكاره، وقد حمل إليه رسالة من أستاذه الونيسي، فأحسن استقباله، ودعاه إلى زيارته في بيته بحلوان القريبة من القاهرة، ثم أجازه بعد ذلك هو الآخر[24].

ومن الإسكندرية انتقل إلى القاهرة أين زار الأزهر الشريف ووقف على أساليب الدراسة فيه[25].

ولاشك أن رحلة ابن باديس إلى المشرق العربي، قد أطلعته على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية، وخبر فيها أحوال الناس وشؤونهم وأوضاعهم وطبيعة تفكيرهم واهتماماتهم، مما وسع أفقه وفتح آفاقه الفكرية وبصَّرَه بطريق الخلاص مما كانت تعانيه الجزائر من تخبط وانهيار وانهزام أمام المستعمر الغاشم، ذلك الطريق الذي يعتمد أساسا على التربية والتكوين والتوجيه والتبصير.

العودة إلى قسنطينة واستئناف التدريس بها:

بمجرد أن عاد الشيخ ابن باديس إلى قسنطينة، شرع في استكمال عمله في التدريس والوعظ والإرشاد، كما كان قبل سفره إلى المشرق، ورغبة منه في عدم تكرار ما سبق أن حصل له مع الشيخ ابن الموهوب، استصدر له أبوه رخصة رسمية من الوالي الفرنسي لولاية قسنطينة، تسمح له بأن يُدَرِّسَ بالمجان في (الجامع الأخضر).

وقد نظم دروسا للعامة، وأخرى خاصة بالطلبة الوافدين، يلقي بعضها

23 ـ الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية، للزبير بن رحال، ص: 14.

24 ـ انظر: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، لابن باديس، ص: 481. وآثار الإمام ابن باديس، ج: 3، ص: 101.

25 ـ الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية، للزبير بن رحال، ص: 14.

في الجامع الأخضر، وبعضها في مسجد سيدي قموش، دون أن يتقاضى على عمله من الحكومة أو من غيرها، أي أجر.

وقد كان من دروسه العامة درس في التفسير، ثم درس في الحديث شرحا لكتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس رحمه الله. ودرس التفسير «درس عام، يحضره إلى جانب الطلبة جمهور كبير، ويقع يوميا بعد صلاة العشاء في الجامع الأخضر، ما عدا يوم العطلة الأسبوعية تدوم حصة الدرس ساعة واحدة في الغالب، أو تقل عنها تارة»[26].

أما الدروس الموجهة للطلبة، فتختلف حسب مستوى كل طبقة، ويركز فيها على العلوم الدينية واللغوية والتاريخ الإسلامي والتوحيد والمنطق وغير ذلك من العلوم التي تدخل في تكوين الطالب.

وكان من عادة الشيخ ابن باديس أنه حين بداية الدروس أول السنة الدراسية، يجمع الأستاذ تلاميذه في اجتما ع عام ليزودهم بنصائحه الغالية، ويحضهم على الجد والاجتهاد وتحاشي مواطن الشبهات التي تعوق عن الانقطا ع للدراسة وتمس بالكرامة وشرف النفس ومكانة العلم، مؤكدا على التحلي بكل خلق كريم، وتجافي كل عمل ذميم..

كان الشيخ رحمه الله يأخذ تلاميذه بالتوجيه الجدي، والتربية الحازمة، ويعطي لهم من نفسه الأسوة الحسنة، فكان يحضر من منزله إلى مسجد سيدي قموش، قبل صلاة الفجر، ليتأكد من استيقاظ التلاميذ لأداء الصلاة والاستعداد للشروع في الدراسة...

ويقضي الشيخ بياض نهاره، وزلفا من الليل، في إلقاء الدروس الواحد تلو الآخر، وختامها درس التفسير، وقد يرتفع عددها إلى ثلاثة عشر (١٣) درسا أحيانا في اليوم الواحد.

وخلال شهر رمضان، يزداد الشيخ حيوية ونشاطا أكثر من ذي قبل، فيضيف إلى دروسه المألوفة، درسا في شرح متن صحيح البخاري، قبيل

---

26 ـ لمحات من حياة الشيخ ابن باديس، مقال لعلي مرحوم، في مجلة الأصالة ـ الجزائر، السنة الرابعة، العدد: 24، ربيع الأول ـ ربيع الثاني 1395 هـ/ مارس ـ أبريل 1975 م، ص: 96.

صلاة الظهر، حرصا على إفادة جمهور المصلين.

وإلى جانب الدروس المعهودة، كان الشيخ يدرس تلامذته الخطابة والكتابة، وينشر ما ينتجه بعضهم، تشجيعا لهم، ففي ليلة يوم العطلة يجتمع الطلبة ليتباروا في إلقاء الأشعار والكلمات المكتوبة والمرتجلة، وكل يريد أن يتفوق فيما يأتي به من قول نثرا أو شعرا. وقد برز بعضهم فعلا في هذا المضمار، وظهر منهم الكاتب المبدع والشاعر المُجيد، والخطيب البليغ، مع ما كانوا عليه من المستوى العلمي المتين[27].

ولم يكن الشيخ ابن باديس يكتفي بالدروس التي كان يقدمها أو يشرف عليها، بل كان يقوم في العطلة الصيفية، وفي أيام الراحة الأسبوعية، بجولات استطلاعية في القطر يتعرف فيها على أحوال البلاد والعباد، ويلقي الدروس في المساجد والزوايا وحيثما تيسر له، ويعلن عن نشاطه التربوي وعن الدروس العلمية التي يتلقاها الطلبة في قسنطينة حتى يبين الفائدة المرجوة منها لمن يشاء الالتحاق بها، ويطلب من شيوخ الزوايا الذين يَحْضُرُون دروسه ومحاضراته أن يرسلوا أبناءهم وطلابهم للتعلم عليه في قسنطينة. هكذا، وبهذا الأسلوب الإعلامي، تنامى عدد طلابه من مختلف جهات الوطن، وخاصة عمالة قسنطينة، وأصبحوا يَفِدُون على الجامع الأخضر، وعلى دروس الشيخ في مختلف المواد.

وكان قد قَسَّمَ الطلاب إلى أربع طبقات حسب مستوياتهم، والذين ينهون دراستهم عنده يوجه القادرين منهم لإتمام دراستهم في تونس بجامع الزيتونة.

استمر الشيخ في عمله هذا بهدوء وصبر وحكمة طوال فترة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨ م)، معلما ومربيا الصغار والكبار، واعظا ومرشدا للعامة والخاصة، موقظا الهمم ناشرا للوعي، داعيا إلى الصالح العام. وكان من نتاج تربيته وتعليمه في هذه المرحلة طليعة من طلابه النبغاء: مبارك الميلي، والسعيد الزاهري، والهادي السنوسي، ومحمد بن العابد،

---

27 ـ مقال علي مرحوم السابق الذكر، ص: 98 ـ 99.

والسعيد الزموشي، ومحمد الصالح بن عتيق، والفضيل الورتلاني، وآخرون كثيرون، منهم من اكتفى بما تعلمه عليه، ومنهم من واصل دراسته في الزيتونة حتى نال شهادة التطويع[28].

توجهه إلى الاشتغال بالصحافة إلى جانب التعليم:

على الرغم من أن العمل في التعليم كان يأخذ من الشيخ عبد الحميد بن باديس جل وقته، إلا أنه لم يلبث أن فكر في الاشتغال بالصحافة أيضا إلى جانب الاستمرار في التعليم حتى يضمن انتشار أفكاره الإصلاحية في أوسع رقعة ممكنة، لذلك بدأ سنة ١٩١٩ م الكتابة في صحيفة ««النجاح» التي كان يشرف عليها الشيخ عبد الحفيظ الهاشمي ومامي إسماعيل، لكنه سرعان ما توقف عن الكتابة فيها لما تبين له أنها تلاين الحكومة الفرنسية وتخضع لإرادتها. ثم توجه تفكيره إلى ضرورة إنشاء صحافة عربية مستقلة خاصة به، وقد مهد لذلك بإنشاء (المطبعة الإسلامية الجزائرية) مع ثلة من أقرب الناس إليه[29].

في تلك الأثناء (سنة ١٩٢٠ م) كان قد عاد إلى الجزائر من المشرق العربي، العالمان الجليلان: الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العقبي، فكانا رافدين إضافيين قويا عزيمة ابن باديس على إنشاء صحافة عربية مستقلة..

وقد كانت أول صحيفة أنشأها ابن باديس هي جريدة (المنتقد) الأسبوعية، في قسنطينة، بتاريخ: ٢ جويلية ١٩٢٥ م، وقد أسند إدارتها للسيد أحمد بوشمال[30]، وكان شعارها «الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء»، ولكنها لم تعمر طويلا نظرا لشدة لهجتها في الانتقاد، إذ أوقفتها

---

28 ـ انظر: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، لفضيل ورمضان، ص: 37.

29 ـ انظر: إمام الجزائر، لفضيل ورمضان، ص: 38.

30 ـ مقدمة مجلة الشهاب، بقلم: عبد الرحمن شيبان، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط: 1، 2000 م، ص: 8.

الإدارة الاستعمارية بعد صدور ثمانية عشر عددا منها[31]، ومن الجدير بالذكر أن تعطيل (المنتقد) كان بقرار من وزارة الداخلية في باريس، ولم يكن من دوائر الولاية العامة في الجزائر أو عامل عمالة قسنطينة، كما كانت تجري الأمور عادة[32]. لذلك عوَّضَها الشيخُ بجريدة أخرى هي (الشهاب) التي تحولت بعد أربع سنوات إلى مجلة شهرية، واستمرت تواصل رسالتها، ولكن بلهجة معتدلة وأسلوب مرن، إلى أن توقفت من تلقاء نفسها في بداية الحرب العالمية الثانية[33].

محاولة تأسيس جمعية (الإخاء العلمي) وسبب فشلها:

في سنة ١٩٢٤ م، زار ابنُ باديس صديقَه محمد البشير الإبراهيمي في مدينة سطيف، وأخبره بأنه عقد العزم على تأسيس جمعية باسم (الإخاء العلمي) يكون مركزها العام بمدينة قسنطينة، وتكون خاصة بعمالتها، تجمع شمل العلماء والطلبة وتوحد جهودهم.

وعهِد ابن باديس إلى الإبراهيمي مهمة وضع القانون الأساسي لهذه الجمعية، فوضعه الإبراهيمي، واتفقا عليه[34].

لكن حدث بعد ذلك ما عطل المشروع، حيث إن علماء قسنطينة لم يتجاوبوا مع الفكرة رغم تحبيذهم لها، لأن أكثرهم كانوا من موظفي الإدارة الحكومية، وهذه الإدارة كانت معارضة للمشروع[35].

محاولة إنشاء الحزب الديني الإصلاحي وفشلها:

وفي سنة ١٩٢٥ م، نشر الشيخ ابن باديس في العدد الثالث من جريدة (الشهاب)، دعوة إلى المتعلمين المصلحين المشتتين في أنحاء الجزائر

31 ـ إمام الجزائر، لفضيل ورمضان، ص: 38.

32 ـ مقدمة مجلة الشهاب، بقلم: عبد الرحمن شيبان، م. س، ص: 11.

33 ـ انظر: إمام الجزائر، لفضيل ورمضان، ص: 38.

34 ـ انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج: 1، ص: 184 ـ 185.

35 ـ انظر: سجل مؤتمر جمعية العلماء، مقال للإمام الإبراهيمي، ص: 55.

بأن يتجمعوا في «حزب ديني محض» يكون هدفه تنقية الدين من الخرافات والبدع والعودة به إلى مصادره الأولى: القرآن والسنة النبوية. وطالبت الدعوة كل مثقف وكل مناصر للإصلاح، يوافق على فكرة إنشاء الحزب، أن يكتب إلى إدارة الجريدة رأيه، حتى إذا كان عدد الموافقين كافيا، يُبَاشَرُ بتأسيس الحزب.

وسرعان ما انهالت على إدارة الجريدة موافقات العلماء المصلحين، ومنهم الطيب العقبي، والعربي التبسي، ومبارك الميلي، والمولود الحافظي.

ويبدو أن الظروف التي حالت دون تكوين «جمعية الإخاء العلمي» وقفت أيضا في وجه (الحزب الديني الإصلاحي)، فإن الحاكم العام «ڤيوليت» لم يتحمل فكرة إنشاء جمعية إصلاحية يمكن أن تحدث هزة في الفكر الديني والاجتماعي السائد في الجزائر، خاصة وأن معارضة الكولون لسياسته الانفتاحية على الوطنيين الجزائريين كانت في تصاعد، كما لم يكن بإمكانه التخلي عن الطرقيين والمرابطين، بالترخيص لحزب أو لجمعية إصلاحية ستكون - بلا ريب - حربا عليهم.

ابن باديس يتعرض لمحاولة اغتيال:

كانت جريدة (الشهاب) دائبة في نشر المقالات الصحفية التي تتضمن حملات شعواء على الخرافات والأباطيل، وعلى المبتدعة والمضللين، وكان من أشد الكتاب عنفا على الطريقة العليوية وشيخها المتهم بالحلول ووحدة الوجود، كاتب يمضي مقالاته باسم (بيضاوي)، فحاول العليويون معرفة هذا الكاتب، ولكن إدارة (الشهاب) أبت الكشف عنه.

كما أن الشيخ ابن باديس كان قد ألف رسالة علمية يرد فيها على الشيخ ابن عليوة لسوء أدبه مع النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى بعض شطحاته الحلولية المنافية للعقيدة الإسلامية.

لذلك اغتاظ العليويون، واستشاطوا غضبا، فقرروا الفتك بالإمام ابن باديس، وعقدوا اجتماعا في مستغانم اتفقوا فيه على اغتيال الشيخ المصلح،

وأرسلوا من ينفذ هذه الخطة، وفي قسنطينة شرع هذا الشخص الموفد مع بعض مساعديه في ترصد الشيخ لمعرفة مسكنه وتحركاته وأوقاته، وفي مساء يوم ٩ جمادى الثانية ١٣٤١ هـ، الموافق لـ: ١٤ ديسمبر ١٩٢٦ م، أقدم الجاني على تنفيذ محاولته الآثمة، حيث دنا من الشيخ الإمام وهوى على رأسه بهراوة فأصابه بضربتين في رأسه وصدغه، فشج رأسه وأدماه، لكن الشيخ برباطة جأشه وشجاعته وقوة نفسه استطاع الإمساك به ونادى الناس إلى نجدته فأقبلوا، وقد حاول المجرم في أثناء ذلك أن يسل خنجرا ويجهز به على الشيخ، إلا أن الله نجاه منه بفضل جماعة النجدة التي قبضت عليه وأرادت الفتك به فمنعهم الشيخ، عند ذلك ساقوه إلى الشرطة فأوقفته وفتشته ووجدت عنده سبحة وتذكرة سفر ذهابا وإيابا بتاريخ ذلك اليوم (بين مستغانم وقسنطينة)، زيادة على الموسى والعصا، فأودعته السجن، ثم قدمته إلى المحكمة التي أصدرت في شأنه حكما بالسجن مدة خمس سنوات[36] .

تأسيس نادي الترقي بالجزائر العاصمة:

في سنة ١٩٢٧ م، تم تأسيس نادي الترقي في مدينة الجزائر، بجهود بعض رجالاتها، وكان من أهدافه تثقيف مسلمي الجزائر، وإعانة الفقراء. وقد استدعى مؤسسو هذا النادي الشيخَ الطيب العقبي ليقوم فيه بالوعظ والإرشاد، على غرار ما يقوم به الشيخ ابن باديس في قسنطينة.

وكانت المحاضرة الافتتاحية في هذا النادي من إلقاء الشيخ ابن باديس، وتحت عنوان «الاجتماع والنوادي عند العرب»[37] .

وقد استمر الإمام ابن باديس يتعهد النادي بالمحاضرات ودروس التفسير كلما حل بالعاصمة بعد ذلك.

---

36 ـ إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، لعبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، ص: 39 ـ 40

37 ـ انظر: حياة كفاح، لأحمد توفيق المدني، ص: 113. نقلا عن: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، ص: 106.

أول اجتماع لرواد الإصلاح:

كانت لقاءات ابن باديس والإبراهيمي مستمرة منذ عودة الأخير من المشرق، وكانت تتم تارة في سطيف، وأخرى في قسنطينة، وتنصب على دراسة الوضع في الجزائر والبحث عن السبل الكفيلة بمعالجة هذا الوضع.

وبعد هذه اللقاءات الممهدة فكر الشيخ عبد الحميد في أن يخطو خطوة عملية تكون تمهيدا مباشرا للشروع في التحضير لتأسيس هذه الجمعية التي ظلت فكرة لم تجد طريقها إلى لتنفيذ.

لذلك دعا سنة ١٩٢٨ م الطلاب العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربي لندوة يتدارسون فها أوضاع الجزائر، وكان ممن لبى الدعوة رواد الإصلاح الإسلامي، وهم: البشير الإبراهيمي، مبارك الميلي، العربي التبسي، محمد السعيد الزاهري، محمد خير الدين، واجتمعوا برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس بمكتبه المجاور لمسجد الأربعين شريفا بقسنطينة، وقدم الشيخ حديثا مطولا عن وضعية البلاد والقوانين الجائرة التي تحكمها، ليصل بعد ذلك إلى دور العلماء في المقاومة والتضحية، وعرض عليهم خطة عمل مؤلفة من عدة نقاط، هي:

- إنشاء المدارس الحرة لتعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية.
- الالتزام بإلقاء دروس الوعظ لعامة المسلمين في المساجد الحرة.
- الكتابة في الصحف والمجلات لتوعية طبقات الشعب.
- إنشاء النوادي للاجتماعات وإلقاء الخطب والمحاضرات.
- إنشاء فرق الكشافة الإسلامية للشباب.
- العمل على إذكاء روح النضال في أوساط الشعب لتحرير البلاد من العبودية والخضوع للحكم الأجنبي[38].

38ـ انظر التفاصيل في: مذكرات الشيخ محمد خير الدين، المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر، بدون تاريخ، ج: 1، ص ـ ص: 83 ـ 86.

إنشاء جمعية التربية والتعليم الإسلامية:

ولم يكتف ابن باديس بمجرد دعوة العلماء إلى العمل في المجالات السابقة الذكر، وإنما قام بالمبادرة إلى إنشاء جمعية التربية والتعليم الإسلامية وذلك سنة ١٩٣٠ م، وهي أول جمعية إسلامية تُعنى بالتربية والتعليم يُرَخَّصُ لها في قسنطينة، وقد كان مكتب التعليم العربي النواة الأولى التي انبثقت عنها هذه الجمعية التي اختارت الشيخ ابن باديس رئيسا لها. وبذلك تحول (المكتب) إلى (مدرسة عصرية) تحمل اسم هذه الجمعية، وهو الاسم الذي صار بعد ذلك شعارا لكثير من مدارس الإصلاح بالجزائر[39].

يجدر التذكير هنا أن المرحلة التي نشأت فيها هذه الجمعية قد تميزت على المستوى العام بجملة أمور لعل أهمها تضاعف نشاط الإرساليات التبشيرية في الجزائر، وكذا انحسار دائرة التعليم العربي الإسلامي، ثم مرور قرن كامل على الاحتلال الفرنسي للجزائر.

وقد كان لذلك انعكاسه على مضمون القانون الأساس للجمعية، حيث ركز على اعتبار أن المقصد الرئيس لهذه الجمعية هو نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف العربية والفرنسية، وعدم الخوض في الأمور السياسية. كما أكد على تأسيس مكتب لتعليم أبناء المسلمين الذين لم يتمكنوا من الالتحاق بالمدارس الحكومية، وتثقيف أفكارهم بالعلم باللسانين العربي والفرنسي.. إضافة إلى تأسيس ملجأ لإيواء اليتامى الذين تتربص بهم البعثات التبشيرية لاحتوائهم وإبعادهم عن دينهم.. كما أشار أيضا إلى إرسال البعثات العلمية إلى بعض جامعات الدول الإسلامية، لإتمام الطلاب تحصيلهم العلمي، وإعدادهم لغد يكونون فيه قادة يسوسون أمتهم وأمور حياتهم.. وقد عزمت الجمعية ـ إلى جانب ذلك كله ـ على فتح قسم خاص لتعليم البنات وتربيتهن التربية الإسلامية الصحيحة، إدراكا منها بأن المجتمع لا يمكن أن ينهض إلا بالجنسين معا، الرجل والمرأة.

---

39 ـ إمام الجزائر، لفضيل ورمضان، ص: 44.

قيام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

كان النصف الثاني من عام ١٩٣٠ الدافع المثير للعلماء المسلمين في الجزائر، والذي جعلهم يحثون خطاهم، ويتجهون نحو تشكيل جمعية العلماء، فاحتفال فرنسا في الجزائر يوم ٥ جويلية ١٩٣٠ بالذكرى المئوية للاحتلال، وما رافق هذا الاحتفال من تحديات سياسية واستفزازات دينية، من ذلك مثلا: تنظيم استعراض عسكري في شوارع العاصمة والمدن الجزائرية الأخرى، بثياب مماثلة للثياب التي كان يرتديها الجنود الفرنسيون عند بداية الاحتلال، وأسلحة كتلك التي استخدموها في احتلال «سيدي فرج» وبقية المناطق الجزائرية. ومن ذلك أيضا: التصريحات المهينة التي صرح بها الحاكم العام في المرسى القديم أمام المهنئين بالذكرى. ومن ذلك أيضا أمر الإدارة الفرنسية لبعض موظفيها من رجال الدين المسلمين بالسير إلى مغارة سيدي فرج حيث كان الفرنسيون قد أقاموا – إحياء لذكرى الاحتلال – مقاما لسيدي فرج الولي الصالح الذي تشتهر باسمه المنطقة، وهناك قرأ هؤلاء الرجال القرآن «ابتهاجا» وأكلوا ما أعد لهم من الطعام «بركة». ومن ذلك أيضا إقامة مؤتمر كاثوليكي ديني متعصب في الجزائر وقد جمع له القسس والرهبان من كل مكان، والذين ارتفعت أصواتهم ضد الدين الإسلامي، وضد العروبة، ولم يتورعوا عن مس الذات المحمدية ووصفها بأشنع الأوصاف[40].

كانت هذه الاحتفالات التي بدأت منذ شهر ماي وبلغت ذروتها وغايتها في ٥ جويلية ١٩٣٠، الدافع الذي سَرَّعَ بظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فقد شدد الإمام ابن باديس دعوته - على صفحات جريدة «الشهاب» - إلى تأسيس هيئة توحد جهود العلماء وتجمع أعمالهم وتوجهها إلى إصلاح حال الأمة وخدمة القضية الوطنية.

وقد تبلور ذلك في الدعوة التي طلعت بها «الشهاب» في شهر فبراير

---

40 - انظر: حياة كفاح، لأحمد توفيق المدني، نشر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، بدون تاريخ، ج: 2، ص: 170.

سنة ١٩٣١ إلى إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وجاء في الدعوة عرض ألف فرنك لمن يسعى في إنشائها، وتبرع ابن باديس بألف فرنك أخرى لصندوقها إذا برزت إلى الوجود[41].

وهكذا، وفي يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر ذي الحجة عام ١٣٤٩هـ، الموافق للخامس من ماي ١٩٣١م، اجتمع بنادي الترقي بالجزائر العاصمة اثنان وسبعون عالما وطالب علم من مختلف مناطق القطر الجزائري، استجابة لدعوة خاصة من لجنة تأسيسية متألفة من بعض فضلاء العاصمة، وعلى رأسها السيد عمر إسماعيل. وكان القصد من الدعوة والاجتماع هو تحقيق فكرة تأسيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين». وتم في هذا الاجتماع وضع القانون الأساس للجمعية والمصادقة عليه، كما تمت الموافقة على تشكيلة المكتب الإداري للجمعية، والذي تكون من الأساتذة:

- عبد الحميد بن باديس: رئيسا.
- محمد البشير الإبراهيمي: نائبا للرئيس.
- الأمين العمودي: كاتبا عاما.
- الطيب العقبي: مساعدا للأمين العام.
- مبارك الميلي: أمينا للمال.
- إبراهيم بيوض: مساعدا لأمين المال.

إضافة إلى مجموعة من الأعضاء المستشارين، وهم الأساتذة:

- المولود الحافظي
- محمد الفضيل اليراتني
- مولاي بن الشريف
- الطيب المهاجي
- السعيد اليجري

41 - الشهاب، الجزء الأول، المجلد السابع، فبراير 1931. نقلا عن: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، لأحمد الخطيب، ص: 104.

ـ حسن الطرابلسي

ـ عبد القادر القاسمي[42]

جدير بالذكر أن الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس لم يحضر الاجتماع إلا في اليوم الثالث، أي بعد أن تم اختيار أعضاء المكتب الإداري للجمعية، وانتخابه هو شخصيا رئيسا للجمعية.

وقد كان لهذا الغياب هدفه، الذي يوضحه الشيخ محمد خير الدين رحمه الله، إذ يقول:

«كنت أنا والشيخ مبارك الميلي في مكتب ابن باديس بقسنطينة يوم دعا الشيخُ أحدَ المصلحين (محمد عبابسة الأخضري) وطلب إليه أن يقوم بالدعوة إلى تأسيس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) في العاصمة، وكلفه أن يختار ثلة من (جماعة نادي الترقي) الذين لا يثير ذكر أسمائهم شكوك الحكومة أو مخاوف أصحاب الزوايا، وتتولى هذه الجماعة دعوة العلماء لتأسيس الجمعية (في نادي الترقي بالعاصمة) حتى يتم الاجتماع في هدوء وسلام وتتحقق الغاية المرجوة من نجاح التأسيس... وأسر إلينا ابن باديس أنه سوف لا يلبي دعوة الاجتماع ولا يحضر يومه الأول حتى يقرر المجتمعون استدعاءه ثانية ـ بصفة رسمية ـ لحضور الاجتماع العام، فيكون بذلك مدعوا لا داعيا، وبذلك يتجنب ما سيكون من ردود فعل السلطة الفرنسية وأصحاب الزوايا، ومن يتحرجون من كل عمل يقوم به ابن باديس»[43].

وهكذا تأسست الجمعية وتشكل مجلسها الإداري المنبثق عن الاجتماع العام، وقد حرص أعوان الحكومة ومن معهم أن تكون للوجوه التي يرضون عنها مكانة في هذا المجلس حتى يستطيعوا توجيهه كما يشاؤون، ولكن عملية انتخاب الأعضاء خيبت مساعيهم، فقد فاز العلماء المصلحون

---

42 ـ انظر التفاصيل في: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط: 1، سنة: 2000 م، ج: 1، ص: 71 ـ 72.

43 ـ مذكرات الشيخ محمد خير الدين، ج: 1، ص: 105 ـ 106.

الموالون لحركة ابن باديس بأهم المناصب فيه، برئاسة هذا الأخير، وهذه النتيجة لم تُرض أعوان الإدارة الاستعمارية، ولا أتباع الطريقة العليوية بالخصوص[44].

(ميرانت) يحاول ثني ابن باديس عن رئاسة الجمعية:

بعيد تأسيس جمعية العلماء في شهر ماي سنة ١٩٣١ م، طار صيتها في أرجاء الوطن بسرعة البرق، وبلغ صدى أعمالها ومساعيها في بعث الأمة من جديد على أساس تعاليم الإسلام البعيد عن كل جمود أو جحود، بلغ ذلك إلى أسماع دوائر الاستعمار، ففكرت في الطريقة التي تحبط بها مساعي الجمعية، فضيقت الخناق على والد الشيخ ابن باديس الذي كان تاجرا وفلاحا، وسدت في وجهه أبواب المعاملة مع البنوك، وقد عاكسته الظروف فوقع في أزمة مالية، أصبح إثرها مهددا بالإفلاس[45]..

هكذا سعى (ميرانت) مدير الشؤون الأهلية إلى إحضار الشيخ ووالده في مكتبه بالعاصمة، وهو يأمل - ولاشك - أنه سينجح في إبعاد الشيخ عن رئاسة جمعية العلماء، بالوسيلة التي اختارها.. ولذلك فقد عرض على الشيخ أن يختار لنفسه أي وظيفة رغب فيها (مفتي أكبر.. أو قاضي قضاة) مثلا، على شرط واحد هو أن يتخلى عن رئاسة جمعية العلماء، مع إضافة مساعدة مالية تمنحها الحكومة لوالده، قصد تحسين أوضاعه الفلاحية والاقتصادية.

فماذا كان موقف الشيخ إزاء هذا العرض المغري يا ترى؟[46].

نترك الإجابة عن هذا السؤال للإمام نفسه، فيما رواه على لسانه الأستاذ أحمد توفيق المدني رحمه الله، الذي كتب عن هذه الحادثة قائلا:

«جاءنا عبد الحميد يوما إلى النادي، وكنا جماعة ننتظر رجوعه من الولاية العامة، فقال: اليوم أدركت السر في أن محمدا صلى الله عليه وسلم

---

44 - إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، لمحمد الصالح رمضان وعبد القادر فضيل، ص: 45.

45 - الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية، للزبير بن رحال، ص: 93.

46 - مقال علي مرحوم السابق الذكر، ص: 108.

نشأ وعاش يتيما، فلقد وقفت اليوم أمام والدي محمد المصطفى بن باديس، وهو يجلس إلى جانب ميرانت مدير الأمور الأهلية، موقفا أرجو أن يحتسبه الله لي يوم القيامة. فلقد ابتدرني ميرانت بحديث حلو العبارة مر المذاق، وقال لي: يا شيخ، اترك عنك هذا العار، اخرج من هذه (الحشومة)، ودع هذه الجماعة المسكينة التي جمعها عدو فرنسا بالنادي، فليس هؤلاء الرجال رجالك، وليست هذه الحثالة من الطلبة ممن يفتخر العالم بالانتساب لهم، أو أن يكون رئيسا عليهم.

قال: واستمر على هذا المنوال، ودمي يفور، وشعوري يتأجج كأنه نار. وحاولت أن أرد الصاع صاعين، وإذا بوالدي، وهو كل شيء عندي بالنسبة للحياة الدنيا، يقف أمامي ويبكي، ويقول: يا عبد الحميد، يا ولدي، ربيتك صغيرا وعلمتك يافعا، وفتحت أمامك أبواب الحياة الهنيئة، حتى غدوت عالما تُشد إليك الرحال، فلا تفضحني اليوم يا عبد الحميد في شيبتي، لا تشمت بي الأعداء، لا تتركني للمذلة والهوان، هذا حبيبنا مسيو ميرانت لا يريد لنا إلا الخير، وقد مهد لي سبل الوصول إلى المركز الذي أنا فيه، وإن الإعراض عنه هو إعراض عني أنا، وإن الإساءة إليه هي إساءة لي، ورفْض طلبه هو رفْض طلبي، وقد أمر الله بطاعة الوالدين، وأنا آمرك يا عبد الحميد بالتخلي عن هذه الرئاسة وعن هذه الجمعية.. قال: ثم انحنى أمامي، وأنا أذوب، وأكبَّ على رجليّ يقبلهما ويبكي ويقول: لا تفضحني يا عبد الحميد.

قال: فانتصبت واقفا، وأنا أرتعد تأثرا لا فرْقا، وتوجهت لوالدي وقلت: حاشا أن أعصي لك أمرا، أو أن أخالف لك رأيا، وأنا ابنك المطيع، لكنني إن أطعتك في هذا الشأن خالفت أمر الله، وأمر الله فوق أمر الوالد بنص القرآن. لقد وقف محمد عليه الصلاة والسلام مثل هذا الموقف أمام أكابر قومه ووجوه عشيرته، فراودوه على أن يترك الدعوة لله وله ما يشاء مقابل ذلك من متاع ومال، فأجابهم الجواب القاطع الصارم: والله لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، إلى أن ينصره الله أو أقضى دونه.. هذه هي كلمتي الأخيرة، يا والدي، ويا

مسيو ميرانت، وليفعل الله بعد ذلك ما يشاء.. وخرجت لا ألوي على شيء.

قال له علامتنا العظيم البشير الإبراهيمي، على الفور: طوبى لك يا عبد الحميد وحسن مآب. وقمنا إليه فهنأناه وذرفنا الدموع جميعا. فلقد اعتبرنا انتصارنا في تلك المعركة مقدمة لانتصارات باهرة في معارك أخرى آتية لا محالة»[47].

وهناك رواية أخرى عن الحادثة تفيد أن الإمام حين انكب عليه والده يستجديه ويستعطفه بتلك الصورة، قال لهما: ليس لي الآن ما أقوله لكم، ولكنني سأجيبكم برسالة، وأرجو أن تقتنعوا بها.

ثم استأذن الإمام، وقام من مجلسه، فقام السيد ميرانت «المدير» وصافحه بحرارة، ثم رافقه إلى باب مكتبه، وودعه راجيا منه أن يرسل بجواب من أجل قريب.

ولما عاد ابن باديس إلى قسنطينة، حرر رسالة مضمونها العتاب واللوم على موقف المدير من العلم والتعليم، ذلك الموقف الذي لم يكن منتظرا منه بصفته عالما وممثلا لدولة تزعم أنها تحمل مشعل الحضارة والعلم في العالم.. وختم الرسالة بأنه يأسف لعدم إجابة وتلبية طلبه في التخلي عن مهمته العلمية.

وقد كان من نتيجة هذا الموقف من الإمام تجاه ميرانت، أن ضغط على والده وألزمه بالتبرؤ من ولده، فكتب في جريدة «لاديباش» يتبرأ من ولده عبد الحميد بحجة أنه عصاه[48].

الحوادث الدموية بين المسلمين واليهود في قسنطينة وموقف ابن باديس منها:

في الخامس من شهر أوت سنة ١٩٣٥ م، وقعت حوادث دموية خطيرة بين المسلمين واليهود في قسنطينة، قُتل فيها اثنان وعشرون من اليهود،

---

47 ـ مقال أحمد توفيق المدني السابق الذكر، ص: 71 ـ 73.

48 ـ أحداث ومواقف، لمحمد الصالح بن عتيق، منشورات دحلب، ص: 175.

واثنان من المسلمين. وقع هذا بعدما دأب اليهود على استفزاز المسلمين، بتوجيه الشتائم والإهانات إلى الدين الإسلامي، في يومين سابقين.. وفي الوقت الذي كان الوضع ينذر بالانفجار الخطير بين الطرفين، خرج الشيخ بنفسه يجوب الشوارع مع بعض النواب المسلمين، قصد التهدئة وتجنب الكارثة، وبقي كذلك إلى ما بعد منتصف الليل. وقد كان موقفا بطوليا ـ ولا شك ـ لم يخش فيه الشيخ رصاص اليهود، من أجل أن يمنع عن المسلمين ما كان يخشاه من غدر وعدوان، لا من اليهود، بل من تدخل الجيش الاستعماري ضد المسلمين.

ولما تحركت السلطات الاستعمارية الفرنسية، لتأخذ بثأر اليهود من المسلمين، دعا الشيخ جميع النواب والأعيان المسلمين، إلى جمع الصف وتوحيد الكلمة، بغية الظهور بمظهر القوي إزاء السلطة. وحضر الوالي العام إلى قسنطينة، وكان الشيخ على رأس الوفد الذي قابله في دار العمالة، وتكلم الشيخ في قوة المؤمن، وشجاعة القوي بقوة الله، مثبتا حق المسلمين في الدفاع عن أنفسهم ودينهم ضد العدوان المتكرر من اليهود عليهم. وتحول الموقف لصالح المسلمين بعد ما كانوا مُهَدَّدين، وهذا بفضل الموقف الشجاع للشيخ، وبفضل ما حققه من تكتل النواب والأعيان المسلمين في المدينة[49].

مقاطعة احتفالات المعمرين بالذكرى المائوية لاحتلال قسنطينة:

في شهر سبتمبر ١٩٣٧ م، حلت ذكرى مرور مائة عام على احتلال قسنطينة، واستعد المعمرون لإقامة الاحتفالات الصاخبة بهذه المناسبة، دون مبالاة بجرح عواطف المسلمين.

ووجدها الشيخ ابن باديس فرصة لتوجيه ضربة من ضرباته الموجعة المعهودة إلى الدوائر الفرنسية التي تقف وراء هذه الاحتفالات. لذلك جمع أربع عشرة جمعية إسلامية في المدينة، وبعد شرح واف لموضوع الاجتماع

---

49 ـ مقال علي مرحوم السابق الذكر، ص: 109.

من طرف الشيخ، طلب من الجميع أن يوافقوا على إعلان مقاطعة الحفلات المائوية الاستعمارية.

ووقعت الموافقة، وأصدر الشيخ منشورا مؤرخا في: ٢٨ سبتمبر ١٩٣٧ م، يدعو فيه السكان المسلمين جميعا إلى المقاطعة، مستخفا، كعادته، بأي خطر يلحقه من الاستعمار، على هذا التحدي الجريء، ووزع المنشور بصفة واسعة بين الناس، وأُحْبِطَت بذلك مساعي المستعمرين وسُقِطَ في أيديهم[50].

الاحتفال باختتام دروس التفسير:

ظل الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس يوالي تفسير القرآن الكريم منذ عودته من الحجاز سنة ١٩١٤ م، بالجامع الأخضر بقسنطينة، حتى سنة ١٩٣٨ تاريخ ختمه للتفسير.

وقد كان ختم الشيخ لتفسير القرآن مناسبة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لتحتفل بهذا الحدث العظيم القليل النظير في تاريخ الجزائر منذ الفتح الإسلامي.

لذلك تألفت لجنة خاصة بمركز الاحتفال «قسنطينة» وأعدت للاحتفال برنامجا محيطا محكما جعلت شعاره كله «القرآن»، وتم اختيار يومي الثاني عشر والثالث عشر من شهر ربيع الثاني سنة (١٣٥٨ هـ)، الموافق لشهر جوان من سنة ١٩٣٨ م.

وفي يوم السبت الحادي عشر من شهر ربيع الثاني، انهالت الوفود على مدينة قسنطينة من كل مكان من الجزائر.

وكان يوم الأحد هو اليوم الأكبر، حيث اكتظ الجامع الأخضر بالوفود، فلم يبق فيه متنفس، وتراص الناس فيه يشملهم الخشوع وتهيأوا لاستقبال ما يفيض به عليهم الشيخ الرئيس وكأن على رؤوسهم الطير.

وعندما صعد الإمام ابن باديس منبر الدرس، شخصت العيون وخفتت

50 ـ مقال علي مرحوم السابق الذكر، ص: 110.

الأنفاس واستهل بتلاوة المعوذتين، وشرع في تفسيرهما بما كان معهودا منه. وقد استغرق درسه ما يقرب من ساعة ونصف، وختمه بأدعية قرآنية وابتهالات مأثورة، ثم طلب من الحاضرين أن يسألوا الله الرحمة والمغفرة لأخيهم حسين باي مؤسس الجامع الأخضر وواقفه في سبيل العلم وإقام الصلاة وذكر الله.

وقد كان من تخطيط لجنة الاحتفال أن يُقصر اليوم الأول على درس التفسير، حتى يؤدي دوره في التأثير على النفوس، وخصٍّ سائر اليوم لاستراحة الوافدين ووقوفهم على معالم المدينة ومناظرها.

أما اليوم الثاني، فكان هو الموعد المحدد لإقامة حفلة تكريم للأستاذ المفسر بدار الشعب، وقد أسندت لجنة الاحتفال رئاستها إلى الإمام الشخ محمد البشير الإبراهيمي. وكانت حفلة تبارى فيها الخطباء والشعراء والتلاميذ، وألقى قبل ختامها الشيخ الإبراهيمي خطابا مرتجلا تغنى فيه بجمال يوم القرآن وبفوائد الخير التي سيعود بها على الأمة الجزائرية. ثم تلاه بعد ذلك الإمام المحتفى به الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي ارتجل بدوره خطبة ضافية. وكان مسك الختام تقديم جملة من الهدايا التذكارية الثمينة للإمام المحتفى به من قبل هيئة جمعية العلماء والوفود الحاضرة في الاحتفال، وهو ما كان له وقع عظيم في نفس الأستاذ إذ كان سروره بها عظيما.

كما أقيم في مساء يوم الثلاثاء حفل فني إسلامي نشطته ثلاث جمعيات علمية وفنية رياضية، وكان احتفالا ناجحا ومؤثرا، أدى خلاله شباب الجمعيات أناشيد رائعة أبكت العيون وهزت القلوب. وكانت خاتمة الحفل كلمة ألقاها الإمام ابن باديس ودع بها الوفود الحاضرة وشكر الهيئات القائمة على الاحتفال[51].. ولقد كان احتفال الأمة الجزائرية بختم ابن باديس لتفسير القرآن الكريم، خير رد على قرار وزير داخلية فرنسا الذي أصدره

51 ـ انظر الوصف المفصل للاحتفال وأطواره، في: آثار الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج: 1، ص: 328 ـ 340.

في ٨ مارس ١٩٣٨، والذي اعتبر فيه اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر[52].

ابن باديس وقضية فلسطين:

رغم أن الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله لم يعايش أطوار القضية الفلسطينية وتداعياتها ولم يشاهد ما شاهدناه خلال السنوات الأخيرة من ويلات التقتيل التي تسلط على إخواننا في فلسطين من قبل العصابات الصهيونية الآثمة، التي تفعل فعلتها بتواطئ صريح ومعلن من قوى الشر التي تبسط سيطرتها على عالمنا المعاصر. على الرغم من أن ابن باديس لم يعايش هذه القضية، إلا أنه كان من أوائل العلماء المسلمين الذين تنبهوا لخطورة أطماع اليهود في فلسطين، وكان يدرك جيدا أن الاستعمار الغربي ممثلا في بريطانيا، هو الذي يقف وراء غرس الكيان الصهيوني في جسد الأمة العربية الإسلامية، حتى يعوق الإسلام عن النهوض بهذه الأمة، ويحافظ على مصالحه في الوطن العربي، وما كان وعد بلفور إلا تجسيدا لمخطط استعماري بحت.

وقد كتب الإمام عبد الحميد ابن باديس رحمه الله في جريدة الشهاب، سنة ١٩٣٨ م، مقالا تحت عنوان «فلسطين الشهيدة»، أي عشر سنوات تقريبا قبل إعلان قيام دولة إسرائيل، كان مما قال فيه:

«رحاب القدس الشريف مثل رحاب مكة والمدينة، وقد قال الله في المسجد الأقصى في سورة الإسراء: «الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ» لِيُعَرِّفَنَا بفضل تلك الرِّحاب، فكُلُّ ما هو واقع بها كأنه واقع برِحاب المسجد الحرام ومسجد طيبة.. حَمَى الإسلامُ تلك الرحاب من أيامه الأولى، وحَمَى جميع مقدسات جميع الملل، وكَفَّ عاديَةَ بعضهم عن بعض، وعاش اليهود تلك القرون الطويلة ينعمون برخاء العيش، وحرية المعتقد، واحترام المُعاهِد.

ثم تزاوج الاستعمار الإنكليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة فأنتجا لقسم كبير من اليهود الطمع الأعمى الذي أنساهم كل ذلك الجميل، وقذف

52 ـ الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، لتركي رابح، ص: 182.

بهم على فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة فأحالوها جحيما لا يطاق، وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحا لا يندمل...

إن الخصومة [إنما هي] بين الصهيونية والاستعمار الإنكليزي من جهة، والإسلام والعرب من جهة، والضحية فلسطين، والشهداء حماة القدس الشريف، والميدان رحاب المسجد الأقصى..

وكل مسلم مسؤول أعظم المسؤولية عند الله تعالى على كل ما يجري هنالك ــ من أرواح تزهق، وصغار تيتم، ونساء ترمل، وأموال تهلك، وديار تخرب، وحرمات تنتهك، كما لو كان ذلك كله واقعا بمكة أو بالمدينة ــ إن لم يعمل لرفع ذلك الظلم الفظيع بما استطاع.. يريد الاستعمار الإنكليزي الغاشم أن يستعمل الصهيونية الشرهة لقسم الجسم العربي، وحط قدس الإسلام، فيملأ فلسطين بالصهيونيين المنبوذين من أمم العالم، ولأجل هذه الغاية الظالمة تُجَنَّدُ جنودُ الإنكليز، وتُجمع أموالُ الصهيون، وتُسفكُ الدماء البريئة، وتُلطخُ بها الرحاب المقدسة»[53].

هذا ما قاله الإمام قبل قيام دولة إسرائيل بعشر سنين، فكيف لو عاش الإمام حتى قامت هذه الدولة، ورأى ما أورثته للعرب من خزي وعار عبر حروب متتابعة في ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧م؟ وماذا كان سيقول الإمام حين يرى العرب يسارعون إلى التطبيع مع إسرائيل ويتفانون في بيع قضية فلسطين؟ وكيف كان سيكون رد فعله لو رأى الجرائم الوحشية البشعة التي تنتهكها القوات الصهيونية في السنوات الأخيرة على مرأى ومسمع من عالم متواطئ متوحش أضاع الضمير فضاع؟.

53 ـ آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج: 5، ص: 400.

ابن باديس يرفض إرسال برقية تأييد للحكومة الاستعمارية:

في سبتمبر ١٩٣٨ م، قامت أزمة سياسية حادة، بين دول الحلفاء وألمانيا الهتلرية، وظهرت نُذُرُ الحرب مهدِّدة بخطر جارف، وأسرعت بعض الهيئات الجزائرية، التي تدين بالطاعة العمياء لفرنسا وتعيش على عطفها والتماس رضاها، أسرعت بإرسال برقيات الولاء وشواهد الإخلاص للحكومة الفرنسية. والحق أن فرنسا ما كان يهمها ولاء تلك الهيئات وإخلاصها، لأنها واثقة منها سلفا، ولكن الذي يهمها بل ويقض مضجعها ـ في مثل هذه الظروف العصيبة ـ هو موقف جمعية العلماء... لذلك أوعزت دوائر الحكومة إلى من يعد نص برقية الولاء، ويتقدم بها إلى الجمعية وهي في اجتماعها السنوي العام بنادي الترقي، عسى أن توافق على إرسالها.

وبعد أن دافع أنصار البرقية عن وجهة نظرهم، ملحين على إبراز الفوائد الجمة التي تجنيها الجمعية من إرسال هذه البرقية لفرنسا، وبعد أن ناقش الأعضاء هذه القضية، رُفض إرسال البرقية بأغلبية ساحقة.

ولم يقتنع مؤيدو البرقية بالنتيجة، وطلبوا عرض الموضوع على الاجتما ع العام، وكان ذلك. ووقف أحدهم رحمه الله ـ وكان يمتهن مهنة محام ـ ليدافع بكل قواه عن رأيه ورأي أصحابه، ولكن بدون جدوى. ووقف عضو آخر له وزنه في قوة الإقنا ع وبلاغة التعبير وفصاحة اللسان، ولكن حظه لم يكن أحسن من حظ سابقه.

ووقف الشيخ ابن باديس أخيرا، ليدلي بكلمة الفصل في القضية، فقال: «إنني لا أوافق على إرسال هذه البرقية أبدا، ولو قطعوا رأسي ـ وأشار بيده إلى عنقه ـ لأن ذلك يعتبر قبولا مني بتجنيد أبناء هذه الأمة في الحرب، وكيف أوافق وألوان الاضطهاد ما تزال تنصب على الأمة، وتنال من دينها ولغتها وقوميتها؟، وأنا لا أنتظر إلا إحدى الحسنيين: فإما حياة السعادة، وإما الفوز بالشهادة».

وضجت القاعة بتصفيق الاستحسان والتأييد.

ووقف بعد الشيخ، العضو المتكلم قبله، ليقول له بالحرف الواحد: إذا كنت تحب تروح للسجن، الناس عندهم وليدات. ويجيب الشيخ بالحرف الواحد: إذا كان أنت عندك أولاد، فأنا أعتبر أولاد الأمة كلهم أولادي[54].

تفكير ابن باديس في الثورة المسلحة:

كان الشيخ الإمام ابن باديس رحمه الله، بالرغم من انشغاله الشديد بالتربية والتعليم، والوعظ والإرشاد، إلا أن أمر الثورة على المستعمر الفرنسي لم يكن غائبا عن باله، بل لقد كان يفكر فيه، ويعمل على التحضير له بجد.. صحيح أن ابن باديس لم يوجه عمله إلى التحضير للثورة من أول يوم، لكن ذلك إنما كان نتيجة لما كانت تعيشه الأمة الجزائرية من جهل وغفلة وعدم معرفة بحقوقها، لذلك وجه جهده الأول إلى محاولة إعادة الوعي إليها بواسطة التعليم والتبصير. في هذا الإطار يروي تلميذه الشيخ محمد الصالح رمضان أن بعض شبان الحركة الوطنية جاؤوا إلى الشيخ ابن باديس وقالوا له: أنت شخصية كبيرة، لماذا لا تدعو للاستقلال وأنت مسموع الكلمة؟ فقال لهم: يا أبنائي من أراد أن يبني منزلا هل يبدأ بالسقف؟ قالوا: لا. قال: فبماذا إذن؟ قالوا: بالأساس والجدران. قال: هذا ما أفعله، الآن نبني الأساس والجدران ثم نبني السقف[55].

فلما رأى ثمار عمله في هذا المجال بدأت تظهر في الواقع، هنالك بدأ التفكير العملي في الثورة المسلحة ضد فرنسا.

تؤكد هذا جملة من الوقائع التي رواها عنه تلاميذه وعارفوه، والتي تثبت أن الرجل كان يحضر للثورة المسلحة قبل وفاته.

من ذلك ما رواه الشيخ حمزة بوكوشة قال: «كنا جلوسا مع الشيخ، وكان مريضا جدا، وكان من ضمن الحضور محمد جلول وسي عبد الرحمن بن بيبي، فقال لنا الشيخ: تعاهدوني. فقلت له: نعاهدك على أمر تكون فيه.

---

54 ـ مقال علي مرحوم السابق الذكر، ص: 110 ـ 111.

55 ـ نقلا عن: عبد الحميد بن باديس، لمازن صلاح مطبقاني، ص: 92.

قال: وهل يمكن أن أطلب أمرا لا أكون معكم؟ قلت: إذا على ماذا نعاهدك؟ قال: الوقت الذي تعلن فيه إيطاليا الحرب على فرنسا، فإننا نعلن الحرب عليها.. ومات قبل ذلك».. وهناك رواية أخرى ذكرها الشيخ عبد الرحمن شيبان، ومفادها: «أن مجلسا جمع الشيخ ابن باديس وصديقه عبد الرحمن يحيى الشريف، المعروف بابن بيبي، فسأل ابن باديس صديقه: هل عندكم في سطيف رجال؟ فأجابه عبد الرحمن: ماذا تعرف؟ ليس في سطيف إلا الرجال! فقال ابن باديس: هل في الإمكان العثور على من يضع قنبلة في مطار عين أرنات؟.. وكان هذا قبل وفاته بشهر أو شهرين»[56].

كما روي عنه أنه قال قبيل وفاته في اجتماع خاص بمبنى جمعية التربية والتعليم الإسلامية، بحضور الأستاذ علي مرحوم، والأستاذ عبد الحفيظ جنان: «والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقونني على إعلان الثورة ـ ضد فرنسا ـ لأعلنتها»[57].

إلى الرفيق الأعلى:

كان لحرص ابن باديس على أداء مهامه التعليمية والتربوية والدعوية وتفانيه في القيام بها، وانشغاله الدائم بمتابعتها وملاحظة آثارها، أن نسي نفسه وأهمل ذاته، ولم يبال بصحته الضعيفة التي تدهورت كثيرا في السنين الأخيرة السابقة لوفاته، حتى أصيب بالسرطان في الأمعاء، ولما لم يتفرغ لعلاجه فقد «أخذ الداء الفتاك يستأثر بجسده الواهي، وهو لا يأبه بذلك، ولا يستمع إلى أقوال الأطباء إلا قليلا، ولطالما وصفوا له الدواء، فإذا بالأيام تمر تباعا، والدواء عند رأسه باقيا على حاله»[58].

---

56 ـ أورد هاتين الروايتين: مازن صلاح مطبقاني في كتابه عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، ص: 92 ـ 92. وقد نقلهما مباشرة عن الراويين في مقابلة له معهما.

57 ـ نقل الرواية: الزبير بن رحال في كتابه: الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية، ص: 123.

58 ـ مقال أحمد توفيق المدني السابق، ص: 63.

ثم ما لبث أن «جثم المرض الخبيث على صدر رجلنا العظيم، فألزمه الفراش... وما عتم الموت الرهيب أن انتزع من ذلك الجسد الفاني تلك الروح النورانية الطاهرة، فرجعت إلى ربها راضية مرضية»[59].

وكان أن لفظ الإمام أنفاسه الأخيرة في ليلة الثلاثاء الثامن من ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ، الموافق ١٦ أبريل ١٩٤٠ م، في مسقط رأسه بمدينة قسنطينة. وشيعت جنازته في اليوم التالي ١٧ أبريل، وسط جموع غفيرة من أهل قسنطينة، ومن الذين جاؤوا من مختلف أنحاء القطر، وسكنت في قسنطينة حركتها الدائمة العظيمة، واستحالت إلى هدوء شامل عميق يسير في موكب جنازة فقيد العلم والوطنية الجزائرية، وكان المشيعون خمسين ألفا أو يزيدون. وقد حُمل الفقيد على أعناق تلاميذه وحدهم إلى مقره الأخير. كما سار وراء الجنازة عدد كبير من النساء الصالحات اللائي كن يواظبن على حضور الدروس التي كان يلقيها الأستاذ الراحل على النساء المسلمات بالجامع الأخضر. كما شاركت في موكب الجنازة جمعية (الكشافة الإسلامية) وسائر الجمعيات والهيئات والفرق الإسلامية كلها، وكان يتقدم هذا الموكب المهيب الشيخ العربي التبسي والشيخ مبارك الميلي والدكتور محمد الصالح بن جلول، الذين أبّنُوا كلُّهُم الفقيد بخطب كان لها تأثير بالغ في نفوس الحاضرين[60]. يقول تلميذ الإمام الأستاذ محمد الصالح بن عتيق رحمه الله، وهو يصف وقائع الجنازة والتأبين، والتي كان أحد شهودها:

«انتهى موكب الجنازة إلى المقبرة الخاصة بالعائلة، ووضع الجثمان، وتقدم العلامة مبارك الميلي وصلى عليه، وأبنه بكلمات مؤثرة، جاء فيها قوله يخاطب الراحل: "نم هنيئا مطمئنا، فما غرسته سينمو ويثمر، فقد تركت بعدك رجالا وإخوانا، وتلاميذ يجددون لك العهد اليوم بأنهم سيواصلون الكفاح ويستمرون في السير على النهج الذي تركتهم عليه مستمدين من الله

---

59 ـ المرجع نفسه، ص: 76.

60 ـ صدى وفاة ابن باديس في التقارير الفرنسية والصحافة الأهلية عام 1940، مقال لعبد الكريم أبو الصفصاف، مجلة الأصالة، العدد: 68 ـ 69، ص: 48 ـ 49.

العون، ومن روحك الطاهرة الدليل والمرشد"..ثم تقدم الأستاذ العربي التبسي فألقى كلمة جاء فيها: "إذا مات ابن باديس فإن العلم لم يمت، وإذا سقط في الميدان فإن فيه بقية من رجال سيحملون راية الإصلاح والكفاح".

وبعدها تقدم الدكتور ابن جلول، وألقى بدوره كلمة أشاد فيها بأعمال الفقيد وجهاده في سبيل وطنه ودينه»[61].

وتم دفن الإمام في مقبرة «آل ابن باديس» الخاصة، رغم وصيته التي أوصى فيها بدفنه في مقبرة شعبية عامة[62].

وقد ترك موت الإمام ابن باديس فراغا عميقا في صفوف الحركة الوطنية، حيث إن أعضاء حزب الشعب الذين كانوا يطمحون إلى الاتحاد مع جمعية العلماء قد اصطدموا بهذا الحدث المروع، وصرح مصالي الحاج قائلا: «إن وفاة هذا الزعيم الروحي تعتبر أكبر كارثة، لا على الإسلام وحده، بل على الحزب الوطني أيضا». كما ترك موته كذلك فراغا أعمق في أوساط العلماء المصلحين، حيث إن أعضاء نادي الترقي، كانوا متأسفين بدورهم على رحيل زعيم الإصلاح في الجزائر[63].

ثم إن الجماهير الشعبية كذلك قد تأثرت أشد التأثر بوفاة الإمام، حيث شكلت كارثة على كل المسلمين، الذين كانوا يعتبرون ابن باديس الخصم الرئيس لفرنسا.

وعلى الرغم من الأسى العميق الذي خلفته وفاة ابن باديس، إلا أنها لم تؤثر على سير عمل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والسر في ذلك أن الرجل لم يربط الجمعية بشخصه، وإنما أقام مؤسسة مستقلة عن الأشخاص الذين لم يكن لهم فيها من دور سوى الإشراف والتسيير.

وبشهادة تقارير المخابرات الفرنسية فإنه «رغم ما أحدثته وفاة ابن

---

61 ـ أحداث مواقف، لمحمد الصالح بن عتيق، ص: 100 ـ 101.

62 ـ من مقال لحمزة بوكوشة في جريدة البصائر، عدد: 49، ص: 8 ـ 13، سبتمبر 1948. والنقل عن: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، لرابح تركي، ص: 195.

63 ـ انظر التفاصيل في مقال عبد الكريم أبو الصفصاف، مرجع سابق، ص ـ ص: 46 ـ 54.

باديس من يأس عميق في نفوس المصلحين فإن خطة الجمعية والأفكار التي كانت موجودة لم تتغير، بفضل قادتها المعروفين، مثل الشيخ مبارك الميلي، والشيخ العربي التبسي، والشيخ البشير الإبراهيمي الذي خَلَفَ الرئيس في قيادة الجمعية فيما بعد، رغم أن الإبراهيمي كان قد وضع تحت الإقامة الجبرية منذ أبريل ١٩٤٠ بآفلو، وتوقفت الدروس بدار الحديث ـ التي كان يديرها بتلمسان ـ بعد نفيه»[64].

ونختم هذا الفصل بذكر ما تميز به الإمام رحمه الله من صفات خلْقية وما تحلى به من مآثر خُلُقية.

صفات ابن باديس الخلْقية:

لم يكن ابن باديس رحمه الله ـ في صفاته الخَلْقية ـ من أصحاب الطول الفارع ولا القصَر المشين ولو أنه كان إلى القصر أقرب.

كان أبيض البشرة، جميل الطلعة، تحفه هيبة الإيمان.

وكان من عادته في لباسه أن يرتدي الثوب الجزائري المعروف بالقندورة، ويضع على رأسه عمامة بيضاء. كما كان يحرص على ارتداء البرنوس المنسوج قماشه في الجزائر. وكان رحمه الله أنيقا في لباسه، وكانت ثيابه لا تتجاوز الكعبين أبدا، بل كانت أقصر من ذلك بقليل[65].

وكان في فصل الشتاء يتخذ كل لباسه من الصوف، ما عدا القميص، وهو حريص على استعمال كل ما هو من إنتاج وطني في جميع شؤون حياته ليكون قدوة حسنة لغيره[66].

وقد كانت له هيبة نافذة وسطوة عجيبة على النفوس، يستشعرها من يعرفه ومن لا يعرفه، ومن ذلك ما يرويه أحد تلاميذه وهو الشيخ محمد

---

64 ـ مقال أبو الصفصاف السابق، ص: 49. وقد نقل عن تقارير المخابرات الفرنسية المحفوظة في أرشيف ولاية قسنطينة.

65 ـ عبد الحميد بن باديس.. العالم الرباني والزعيم السياسي، لمازن مطبقاني، ص: 37 ـ 38.

66 ـ مقال علي مرحوم السابق الذكر، ص: 114.

الصالح رمضان من أن ابن باديس كان يسير في أحد شوارع قسنطينة، فلقيه أحد كبار الموظفين الفرنسيين ورئيس تحرير جريدة (لادبياش دو كونستونتين) فارتبك واضطرب، وحتى يزيل اضطرابه أسرع فتقدم من ابن باديس قائلا: (أنت رجل عظيم، أعرِّفك بنفسي، أنا لوسياني).

كما يؤكد هذا الأمر ما ذكره الشيخ محمد الصالح رمضان أيضا، من أن ابن باديس كان يذهب إلى وهران لزيارة الشيخ الإبراهيمي في مدينته وبين تلاميذه، فكان الإبراهيمي يرى سرعة انقياد الناس لابن باديس وإقبالهم العجيب عليه، فلا يتمالك نفسه أن يقول: «ما أقوى نفوذ هذا الرجل!!». ويُرْجِعُ الأستاذ محمد الصالح رمضان هذا النفوذ النفسي العجيب لدى ابن باديس إلى البعد الروحي له والذي بلغ فيه الغاية، ولذلك اكتسب قوة روحية خارقة كان لها تأثيرها السريع في نفس كل من يلاقيه[67].

خصاله الخُلُقية:

أما خصال الإمام ابن باديس الخُلُقية، وسجاياه النفسية، في حياته وفي علاقاته بالناس والحياة، فهي من أعلى الخصال وأنبل السجايا، منها:

١ - زهده في الحياة وتقشفه في العيش: كان الشيخ ابن باديس يتصف بالزهد والتقشف، والعزوف عن زخارف الحياة ومتاعها، لينقطع لخدمة العلم والدين والوطن. فقد كان يكتفي من الطعام بالقليل الذي يمسك عليه حشاشة الروح، وكثيرا ما تكون وجبة غذائه الخبز واللبن اللذين يأتيه بهما من السوق أحد تلاميذه، أو يؤتى له أحيانا بقدر من الكسكس مع اللبن من دار أبيه.. وفي عدة مناسبات، كان يُدعى من طرف بعض محبيه وأنصاره، وحين توضع المائدة، يسأل صاحب الدعوة عما إذا كان يوجد كسكس، فإذا كان موجودا فلا يزيد عليه، وإذا لم يوجد فلا يتناول إلا من

67. نقل هذا الكلام عن الشيخ محمد الصالح رمضان، الأستاذ مازن صاح مطبقاني، في كتابه: عبد الحميد بن باديس.. العالم الرباني والزعيم السياسي، نشر: دار القلم - دمشق، ص: 36 - 37.

طعام واحد، دون تعدد[68].

٢ ـ تواضعه وبساطته:

من أمثلة ذلك؛ ما رواه الأستاذ عبد الحميد فاضلي تلميذ الشيخ وسائقه الخاص، حيث قال: «في سنة ١٩٢٨ م، زار الشيخ مدينة باتنة، وأراد الذهاب إلى تيمقاد، وقبل هذا السفر قدمت لنا دعوة من الدكتور سعيد بن خليل (طبيب) إلى بيته، ومعنا الشيخ محمد الرشيد مصطفاي والشيخ الطاهر حركاتي إمام بمسجد باتنة في ذلك الوقت. فوافق الشيخ ابن باديس، لكن بشرط ألا يكلف الطبيبُ نفسَه وأن يكون العشاء متواضعا. ولما حان موعد العشاء قدمت لنا أشهى المأكولات العديدة، فغضب الشيخ وقال للدكتور خليل: أهذا هو شرطي؟ فقال الدكتور: أنا أكرمت العلم ولم أكرمك أنت.. عندئذ قبل الشيخ ابن باديس تناول العشاء»[69]..

٣ ـ شدته وشجاعته في الدفاع عن الحق:

ومن الوقائع الشاهدة في هذا الإطار، ما رواه الأستاذ أحمد توفيق المدني رحمه الله، قال: «روى لي أحد تلامذة الشيخ وخواصه هذه القصة، التي وقعت بمحضره، وجاء فيها: أن موظفا فرنسيا كبيرا في الاستعلامات، قام بزيارة للشهيد الشيخ العربي التبسي رحمه الله، محاولا بذلك أن يستدرجه إلى بعض التصريحات التي قد تفيد منها فرنسا سياسيا، فلم يحصل منه على طائل، وأحاله على الشيخ ابن باديس رئيس الجمعية.

قال الراوي: وكنا جماعة من الخواص مع الشيخ الرئيس، بمكتبه في إدارة جمعية التربية والتعليم، حينما جاء الزائر الفرنسي. وبعد التعارف المعتاد، أراد هذا الفرنسي ـ وكان مستعربا ـ أن يمهد للموضوع بالحديث عن حضارة العرب والإسلام في الأندلس، وكأنه أراد بذلك أن يكتسب ثقة

---

68 ـ مقال علي مرحوم السابق الذكر، ص: 114.

69 ـ نقلت هذه القصة على لسانه: نادية وزناجي، في: منهج التفسير عند الشيخين عبد الحميد بن باديس وإبراهيم بن عمر بيوض، بحث نال درجة الماجستير في التفسير من المعهد الوطني للتعليم العالي للعلوم الإسلامية ـ باتنة، 1418 هـ ـ 1419 هـ/ 1998 ـ 1999 م، ص: 15.

الشيخ به، وقد جاراه في قوله وشجعه على تنويهه بهذه الحضارة، بيد أنه لم يدع الفرصة تمر دون أن يلاحظ لمحدثه أخيرا، قائلا له: بأن هذه اللغة التي حفظت هذا التراث الإنساني، وعبرت عن هذه الحضارة، ونقلتها إلى أوربا فاستنارت بها في عهودها المظلمة، قد أصبحت الآن مضطهدة من طرف الإدارة الفرنسية في هذه البلاد، وغدا أهلها يلاقون الضغط والإرهاق ألوانا وأشكالا. وبُهِت الموظف الفرنسي، لأنه ما توقع أن يسمع مثل هذه الصراحة، وحاول أن يخفي تأثير وقع هذه الملاحظة على نفسه بتغيير مجرى الكلام، فطلب من الشيخ أن ينفرد به لحظة لأن لديه أمرا مهما يريد أن يلقي به إليه، فما كان من الشيخ إلا أن اعتذر عن تلبية طلبه، مبينا له أن الجالسين معه من خواصه الذين لم يتعود أن يخفي عنهم أي أمر يهم مصلحة الأمة، وأنه لا يعمل وإياهم إلا في وضح النهار، فإذا كان لديه أي أمر من هذا القبيل فليُدْلِ به أمامهم.. فقام الفرنسي الكبير، متهالكا على نفسه، فودع وخرج يجر أذيال الخيبة والفشل»[70].

٤ ـ العناية بالحفاظ على الوقت:

مما كان يمتاز به الإمام ابن باديس؛ الحرص الشديد على إفادة طلابه، وعدم التهاون في مواصلة الدرس مهما كلفه الأمر من عناء ومشقة، فقد يستغرق عمله جميع النهار وجزءا من الليل. يشرع في الدرس الأول بعد صلاة الصبح مباشرة، ويستمر إلى منتصف النهار، ثم يستأنف العمل بعد صلاة الظهر إلى أن يحين المغرب، فينصرف بعد صلاة المغرب إلى درس التفسير، وينتهي منه عند صلاة العشاء. وهكذا كل يوم ما عدا يوم الجمعة فإنه يخصصه لزيارة بعض المدن للوعظ والإرشاد، والإشراف على حركة التعليم، يسافر ليلة الجمعة ويعود ليلة السبت حتى يستأنف التدريس في الصباح. فكان بهذا مضرب المثل الرائع لطلابه وغيرهم في المحافظة على الوقت، والاهتمام بنشر العلم والمعرفة[71].

70 ـ مقال علي مرحوم السابق الذكر، ص: 112.

71 ـ أحداث ومواقف، لمحمد الصالح بن عتيق، مطبعة ـ دحلب ـ الجزائر، ص: 56.

وهناك صفات خلقية أخرى تحدث تميز بها الإمام عبد الحميد، وقد تحدث عنها عدد من الكتاب الكرام، ولذلك نكتفي هنا بما ذكرنا[72].

وبالجملة لقد كانت «للشيخ عبد الحميد بن باديس ميزة هامة يمتاز بها على أضرابه من الشيوخ والعلماء، وهي أنه كان رجلا يحافظ مثلهم على زي الشيوخ ووقارهم وسمتهم العام، ولكنه كان في نفس الوقت يختلف عنهم اختلافا كبيرا، فقد كان يحمل بين جنبيه قلب الشباب وعزيمة الشباب وإرادة الشباب وطموح الشباب، بل وثورة الشباب»[73].

آثار ابن باديس العلمية:

بما أن ابن باديس نذر نفسه وعلمه لأمته، فقد اختار أن يكون مربيا ومصلحا، لا أن يكون مؤلفا وكاتبا، أو كما كان يقول: «شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب».. فطبيعته الحركية، ومنهجه في التربية والإصلاح، حالت دون تفرغه للكتابة والتأليف. «ولو تفرغ ابن باديس للتأليف لجاءنا منه الشيء الكثير، خاصة وقد انقطع للتدريس ربع قرن وأكثر، وأتم تفسير كلام الله، وشرح حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في نيف وعشرين سنة بنفس الطريقة. ولكنه كان جم المشاغل والأعباء؛ إذ حمل عبء إيقاظ أمة، وإنهاض سنة، وإماتة بدعة، ومحاربة جهل مطبق، ومناوأة مغير قوي ضار غشوم. فإذا قيست مؤلفات الإمام ابن باديس بالنسبة إلى عقله الكبير، وعلمه الغزير، وجهاده الخطير، وسعة الآفاق التي حلق فيها وجال وصال في الميادين الثقافية والاجتماعية، بلسانه وقلمه، لعدت شيئا قليلا»[74].

لذلك كان أكثر ما وصلنا من تراثه الفكري عبارة عن محاضرات

---

72 - انظر: عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، للدكتور محمود قاسم، ص: 35 - 44. عبد الحميد بن باديس، للدكتور مازن صلاح مطبقاني، ص: 36 - 46.

73 - ابن باديس ونشأة الحركة الإصلاحية في الجزائر، مقال بقلم: تركي رابح، في مجلة الأصالة، العدد: 24، ربيع الأول - ربيع الثاني 1395 هـ/ مارس - أبريل 1975 م،ص: 85.

74 - من مقدمة الأستاذ محمد الصالح رمضان، لكتاب: العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. نشر: مكتبة الشركة الجزائرية - الجزائر، ط: 2، 1966 م.

وخطب وتقارير ومقالات صحفية.. في حين أن نشاطه العلمي لم يصلنا منه إلا النزر القليل، فيما كان يكتب كملخصات أو مختارات، أو ما يتولى بعض أصدقائه وتلامذته تدوينه ثم نشره، فقد بلغ تراثه المدون ستة أجزاء، أصدرتها وزارة الشؤون الدينية، وطبعت بدار البعث في قسنطينة. إضافة إلى آثار أخرى نشرها بعض تلامذته وهي عبارة عن أمالي لدروس ألقاها على تلامذته في الجامع الأخضر.

وفيما يلي قائمة بما وصلنا من تراث الإمام ابن باديس رحمه الله:

١ ـ مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير: وهو تفسير ابن باديس، ويشمل ما كتبه ابن باديس من دروس التفسير التي كان ينشرها فواتح لأعداد مجلة الشهاب. وقد جمعت هذه الدروس ونشرتها جمعية العلماء سنة ١٩٤٨ م، كما أعاد تحقيقها ونشرها الأستاذان محمد الصالح رمضان وتوفيق محمد شاهين بعنوان «تفسير ابن باديس»، ثم أعادت نشرها وزارة الشئون الدنينة بالعنوان الأصلي، كجزء أول من آثار الإمام ابن باديس.

٢ ـ مجالس التذكير من حديث البشير النذير: ويشمل ما كتبه ابن باديس من مقالات تتعلق بأحاديث الموطأ التي كان يشرحها في دروسه بالجامع الأخضر. وقد نشرتها وزارة الشئون الدينية كجزء ثان من آثار ابن باديس.

٣ ـ العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية: وهي عبارة عن الدروس التي كان يمليها الأستاذ ابن باديس على تلاميذه، في أصول العقائد الإسلامية وأدلتها من القرآن والسنة النبوية، على الطريقة السلفية، وقد حققها ونشرها الأستاذ محمد الصالح رمضان، كما حققها ونشرها أيضا الأستاذ محمد الحسن فضلاء.

٤ ـ رجال السلف ونساؤه: وهي مجموعة من المقالات ترجم فيها ابن باديس لبعض الصحابة رضوان الله عليهم، وما لهم من صفات اكتسبوها من الإسلام، وما كان لهم من أعمال ومآثر في سبيله. وقد نشر تلك التراجم في مجلة الشهاب، وقد حققها ونشرها مستقلة الأستاذ محمد الصالح

رمضان، كما نشرتها وزارة الشئون الدينية ضمن الجزء الثالث من آثار ابن باديس.

٥ ـ تراجم أعلام: وهي أيضا مقالات تتضمن تراجم لكثير من أعلام الأمة من السلف والخلف. وقد نشرها كذلك في الشهاب. وهي كذلك منشورة ضمن الجزء الثالث من آثار ابن باديس.

٦ ـ مبادئ الأصول: وهو كتاب مختصر في أصول الفقه أملاه ابن باديس على تلاميذه في الجامع الأخضر سنة ١٩٣٦ م. وقد حققه ونشره الأستاذ الدكتور عمار الطالبي.

٧ ـ أصول الفقه من آيات وأحاديث الأحكام: وهو مجموع يشتمل على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتضمن أحكاما فقهية متعلقة بباب العبادات. وهو أيضا مما أملاه الشيخ الإمام على تلاميذه في الجامع الأخضر. وقد نشره تلميذه الأستاذ محمد الحسن فضلاء.

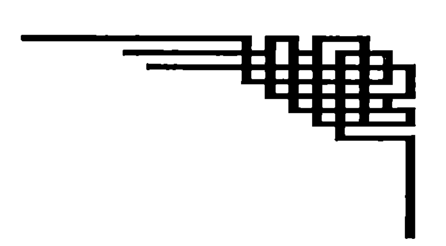
٨ ـ التربية بالقرآن والسنة: وهو كتاب يشتمل على نحو ٧٨ عنوانا في مختلف المقاصد، وإصلاح العقائد وتربية النفس وتهذيب المجتمع وتطهيره من الخرافات والأوهام[75]. وقد وعد تلميذه الأستاذ محمد الحسن فضلاء بنشره، ولكني لا أعلم هل نشره أم لا؟.

٩ ـ مئات المقالات التي كان ينشرها ابن باديس في مجلات وصحف الجمعية، وقد نشر قسما كبيرا منها الدكتور عمار الطالبي في كتابه «ابن باديس حياته وآثاره»، كما نشرتها أيضا وزارة الشؤون الدينية ضمن مجلدات «آثار الإمام عبد الحميد بن باديس».

١٠ ـ كما حقق ابن باديس ونشر كتاب (العواصم من القواصم) للإمام أبي بكر بن العربي.

---

75 ـ من تقديم محمد الحسن فضلاء، لكتاب: أصول الفقه.. آيات وأحاديث الأحكام، من أمالي الأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس، نشر: دار البعث ـ قسنطينة (الجزائر)، ط: 1، 1405 هـ 1985 م، ص: 12.

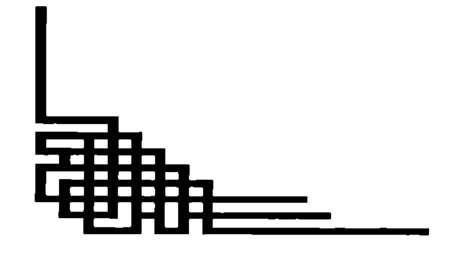


الفصل الثاني

فقه المقاصد الشرعية

عند الإمام عبد الحميد بن باديس

وأثره في منهجه الإصلاحي



فقه المقاصد الشرعية عند ابن باديس
وأثره في منهجه الإصلاحي

تمهيد:

أكثر من خمس وستين سنة مرت على وفاة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله، بعد حياة حافلة بالأعمال الجليلة والآثار المبرورة.. وفي خلال هذه العقود من السنين كتبت عن الشيخ المئات من الكتب والرسائل والدراسات الأكاديمية والمقالات الثقافية.. ومع ذلك، فإن جوانب كثيرة من حياة هذا الرجل ما تزال ضامرة وبحاجة إلى كشف اللثام عنها وتعريف الأجيال الجديدة بها.

لقد انصبت الدراسات التي كتبت عن ابن باديس ـ في معظمها ـ حول دراسة جوانب محدودة من حياته وأعماله، إذ من هذه الدراسات ما تعلق بحياته وبعض جوانب فكره، ومنها ما تركز حول جمعيته، ومنها ما اهتم بالجانب التربوي من حركته، ومنها ما كان متركزا حول علاقة جمعيته ببقية الأحزاب الوطنية الجزائرية في عهده، ومنها ما أريد منه إجلاء نظرته إلى بعض القضايا السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية العامة.

ومع الأهمية البالغة التي تكتسيها تلك الأبحاث والدراسات، إلا أنها تظل تفتقد إلى المرتكز الفكري والمعرفي الذي لابد من إدراكه والتعرف إلى نظرة ابن باديس في شأنه، قبل دراسة أي جانب من جوانب فكره أو نشاطه.. هذا المرتكز هو فقهه الديني ووعيه العميق الدقيق بروح الشريعة الإسلامية. ذلك الفقه والوعي الذي يتجاوز الشكليات والجزئيات والأحكام الظرفية المتغيرة إلى الإدراك البصير بالمبادئ الكلية والقواعد العامة والمقاصد والغايات المطلوب تحقيقها في حياة الناس.

فابن باديس لم يكن مجرد ثائر يعبئ النفوس ويدفع بها لمجابهة الصعاب والعقبات دون حساب للنتائج والعواقب، وإنما كان عالما يدرك بدقة

طريق التحرر والانعتاق، وأنه طريق طويل شاق لا يفضي إلى نهايته في لحظة من الزمن أو بقفزة من القفزات.. ولذلك، فحتى يضمن لعمله كل أسباب النجاح، ولحركته كل أسباب التمكين وتحقيق الأهداف، فقد أدار عمله في إطار تلك المبادئ العامة والأهداف الكلية التي فقهها من الشريعة الإسلامية وأدركها من خلال دراستها والإحاطة بعلومها وأحكامها.

لقد جمع ابن باديس إلى ما حصله من علم، العمل بهذا العلم، إذ وظف ما امتلكه من معلومات وأفكار في عمله التغييري الذي مارسه في واقع المجتمع الجزائري.. وذلك ما مكنه من أن يؤدي عمله الإصلاحي هذا أداء منضبطا بالمقاصد الشرعية، هادفا إلى تحقيقها والعمل على الحفاظ عليها في واقع حياة المجتمع الجزائري الذي كان قد وصل ـ خلال العصر الذي ظهر فيه ابن باديس ـ إلى وضع مزر منحط، بحيث كاد أن يفقد ـ في ظل هذا الوضع ـ كل مقوماته وعناصر حياته، بفعل ما كرسه عليه الاستعمار الفرنسي من تجهيل وتضليل.

لذلك، فنحن بحاجة إذا ما أردنا أن نفهم بدقة طبيعة آراء ابن باديس وجهوده في أي ميدان من الميادين التي عمل فيها، سياسيا أو اجتماعيا أو تربويا أو ثقافيا، أن نعرف شيئا من فقهه للمقاصد العامة للشريعة الإسلامية، ثم نتتبع بعد ذلك أثر هذا الفقه في عمله الإصلاحي، سواء في النظر إلى الأهداف التي سعى إلى تحقيقها، أو الوسائل التي استخدمها لتحقيق تلك الأهداف، وكذا قواعد منهجه في العمل الإصلاحي والذي يربط بين الأهداف التي توخاها والوسائل التي استخدمها.

أولا: خلاصة مركزة عن فقه المقاصد الشرعية

وقبل أن نمضي إلى عرض الفكر المقاصدي عند ابن باديس، لابد من عرض مركز عن علم مقاصد الشريعة ومبادئه الكلية:

إننا نعني بمقاصد الشريعة: «الغايات والأهداف والنتائج والمعاني

التي أتت بها الشريعة وأثبتتها الأحكام الشرعية، وسعت إلى تحقيقها وإيجادها والوصول إليها في كل زمان ومكان»[1].

وهذه الغايات تتلخص في «تحقيق مصالح الناس في الدنيا والآخرة، في العاجل والآجل... ومصالح الناس في الدنيا؛ كل ما فيه نفعهم وفائدتهم، وصلاحهم وسعادتهم، وكل ما يساعد على تجنب الأذى والضرر، ودفع الفساد والهلاك، إن عاجلا أو آجلا، في الحاضر والمستقبل.. ومصالح الناس في الآخرة؛ هي الفوز برضوان الله في الجنة، والنجاة من عذابه في النار»[2].

وقد لخص العلماء هذه الغايات كلها في هدف واحد وغاية كلية هي «جلب المصالح ودرء المفاسد». وهذه الغاية العامة تتجلى في حياة الناس في تحقيق مصالح كلية، لا تستقيم حياة الإنسان بدونها، وهي متدرجة بحسب الأهمية في خمس مراتب، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة أو أي واحد منها فهو مصلحة، وكل ما يتضمن هدمها أو هدم واحد منها، فهو مفسدة ودفعه مصلحة.

ثم إن رعاية كل من هذه الكليات الخمسة، يكون بوسائل متدرجة حسب الأهمية في ثلاث مراتب، وهي: الضروريات، فالحاجيات، فالتحسينيات.

ومقتضى هذا التراتب بين كليات المصالح ووسائل رعايتها؛ ضرورة الترجيح بين المصالح في حال تعارضها، بجلب أعلاها وأقواها، وكذلك الترجيح بين المفاسد في حال تزاحمها وعدم إمكان التخلص من جملتها، باقتراف أدناها وأخفها.. فالمصالح في حالة التزاحم يقدم بعضها على

---

1 ـ عائشة بنت الحسين السليماني، علم مقاصد الشريعة: نشأته وتطوره حتى الإمام أبي إسحاق الشاطبي، بحث في مجلة الموافقات، المعهد العالي لأصول الدين ـ الجزائر، ع/ 1، ذو الحجة 1412 هـ، جوان 1992 م، ص. 185.

2 ـ د/ محمد الزحيلي، مقاصد الشريعة، بحث في مجلة كلية الشريعة بجامعة أم القرى ـ مكة المكرمة، ع: 6، ص: 302.

بعض بحسب تراتبها في الأهمية، فما يكون به حفظ الدين مقدم على ما يكون به حفظ النفس عند تعارضهما، وما به يكون حفظ النفس مقدم على ما يكون به حفظ العقل، وما به يكون حفظ العقل مقدم على ما يكون به حفظ النسل، وما به يكون حفظ النسل مقدم على ما يكون به حفظ المال.

وكذلك الحال بالنسبة للوسائل، فيكون الضروري مقدما على الحاجي عند تعارضهما، والحاجي مقدم على التحسيني عند التعارض.

وإذا كانت الوسيلتان من مرتبة واحدة، فينظر إلى ما تتعلق به كل منهما من أمهات المصالح، فيقدم مثلا الضروري المتعلق بحفظ الدين على الضروري المتعلق بحفظ النفس، وهكذا...

أما في حالة تزاحم المفاسد، فيكون الترجيح بينها على العكس تماما مما عليه الحال في المصالح، إذ يتم قلب هذا الميزان كلية. فإذا تزاحمت المفاسد ولم يمكن التخلص منها كلها وكان لابد من اقتراف إحداها، فالتراتب هنا يكون بتقديم الأدنى، فتقترف المفسدة المتعلقة بحفظ المال قبل المتعلقة بحفظ النسل، والمتعلقة بحفظ النسل قبل المتعلقة بحفظ العقل، وهكذا.. وكذلك الحال في مراتب الوسائل، حيث تقترف المفسدة المتعلقة بالتحسينيات قبل المتعلقة بالحاجيات، والمتعلقة بالحاجيات قبل المتعلقة بالضروريات، وهكذا في سائر الموازين التي تحكم الترجيح بين المصالح فيما بينها، أو المفاسد فيما بينها، أما فيما بين المصالح والمفاسد، فالتقديم عادة لدفع المفاسد على جلب المصالح، لأن دفع المفاسد هو جلب للمصالح بالضرورة، وإن كان من الجانب السلبي[3].

إنني أزعم أن فقه ابن باديس لهذه الموازين المقاصدية في الشريعة الإسلامية، هو الذي مكنه من تحقيق النجاح في عمله التغييري الذي أداه في دائرة المجتمع الجزائري، في وضع صعب ودقيق كالذي كان يواجهه ويعانيه هذا المجتمع في تلك الفترة الحرجة من تاريخه.

---

3 ـ انظر تفصيل هذا الإجمال في كتاب: ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ط: مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

والدليل على ما أقول هو ما سيتبين لنا من خلال عرض الجانب المقاصدي من فكر ابن باديس، وأثره في منهجه الإصلاحي.

ثانيا: التصور المقاصدي عند ابن باديس

لم يكن رجل مثل ابن باديس رحمه الله ـ وهو العالم المسلم العامل ـ ليغيب عنه إدراك أمهات المقاصد الشرعية، بل حتى مقاصد تفاصيل وجزئيات الأحكام الشرعية.

صحيح أن ابن باديس رحمه الله لم يكتب مؤلفات أو مقالات يتحدث فيها عن مقاصد الشريعة الإسلامية أو يبين أهمية العلم بهذه المقاصد، ولكنه ـ لا شك ـ كان يدرك هذه المقاصد ويحيط بها وعيا. وقد اكتسب هذا الوعي من صلته الحميمة بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، يقول:

«كل ما يحتاج إليه العباد لتحصيل السعادتين من عقائد الحق، وأخلاق الصدق، وأحكام العدل، ووجوه الإحسان، كل هذا فصل في القرآن تفصيلا، كل فصل على غاية البيان والإحكام»[4] .

وفي مختلف مقالاته التي كتبها في مجلات وجرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وفي خطبه ودروسه التي كان يلقيها على خاصة تلاميذه وعلى عامة الناس، كان يؤكد على هذه المقاصد، ويعمل على بيان أهميتها والتوجيه إلى ضرورة الحفاظ عليها والعمل على صيانتها من الهدم والضياع.

لقد أدرك ابن باديس ـ كما أدرك ذلك من قبله من العلماء ـ أن الشريعة الإسلامية مبنية ـ فيما شرعته من أحكام ـ على جلب كل ما فيه من منفعة للإنسان ودفع كل ما هو مفسدة له أو من شأنه أن يفضي به إلى المفسدة، وفي ذلك يقول رحمه الله:

---

4 ـ تفسير ابن باديس، تحقيق: محمد الصالح رمضان وتوفيق محمد شاهين. دار الفكر ـ بيروت، (د. ت) ص: 63..

«إن الغاية التي يسعى إليها كل عاقل هي السعادة الحقة، وإن التكاليف الإسلامية كلها شرعت لسوقه إليها»[5]. وفي موضع آخر يقول:

«العناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس إما مباشرة أو بواسطة، فما من شيء مما شرعه الله تعالى لعباده من الحق والخير والعدل والإحسان إلا وهو راجع عليها بالصلاح، وما من شيء نهى الله عنه من الباطل والشر والظلم والسوء إلا وهو راجع عليها بالفساد، فتكميل النفس هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل وشرع الشرائع»[6].

ويحدد ابن باديس مفهوم الصلاح والفساد، فيقول:

«صلاح الشيء؛ هو كونه على حالة اعتدال في ذاته وصفاته، بحيث تصدر عنه أو به أعماله المرادة منه على وجه الكمال.. وفساد الشيء؛ هو كونه على حالة اختلال في ذاته أو في صفاته، بحيث تصدر عنه أو به تلك الأعمال على وجه النقصان»[7].

ولما كان هذا المفهوم اللغوي عاما مطلقا، تتباين في تقديره الأفهام والعقول، تبعا لتباين عقائد أصحابها وأهوائهم، فإن ابن باديس لا يترك مفهوم المصلحة والمفسدة هكذا عائما غير منضبط، وإنما يربطه بميزان شرعي دقيق لا ينخرم ولا تؤثر فيه التأويلات والتفسيرات المتخالفة، فيقول:

«من شاهدنا منه الأعمال الصالحة ـ وهي الجارية على سنن الشرع، وآثار النبي صلى الله عليه وسلم ـ حكمنا بصلاح نفسه، وأنه من الصالحين. ومن شاهدنا منه خلاف ذلك، حكمنا بفساد نفسه، وأنه ليس منهم، ولا طريق لنا في معرفة صلاح النفوس وفسادها إلا هذا الطريق»[8].

هذا المقصد العام ـ أي جلب المصالح ودرء المفاسد ـ يتفرع بعد ذلك إلى كليات مقاصدية ومقاصد جزئية تختفي وراء كل حكم شرعي.

---

5 ـ تفسير ابن باديس، ص: 142.

6 ـ م. ن، ص: 96.

7 ـ م. ن، ص: 95.

8 ـ م. ن، ص: 98.

فإذا كانت مقاصد الشريعة، منها كليات وأمهات عامة تتعلق بكل الأحكام الشرعية في عمومها، ومنها مقاصد جزئية تفصيلية تتعلق بجزئيات وآحاد الأحكام الشرعية، فإن فقه هذه المقاصد بنوعيها لم يكن غائبا عن فكر ابن باديس رحمه الله، بل لقد كان له حضوره في تفكيره، وكان له تأثيره في منهجه في التغيير والإصلاح الاجتماعي.

1 ـ فقه المقاصد الكلية:

نعني بفقه المقاصد الكلية، إدراك أمهات مقاصد الشريعة، وقد حددها العلماء ـ كما سبق القول ـ في خمسة، هي: حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ النسل وحفظ المال. ويحاول بعض العلماء اليوم نقد حصر الكليات في هذه الخمسة، ويصرون على إضافة مقاصد أخرى إليها، كما هو الحال بالنسبة إلى الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذي يضيف مقصد المساواة، والدكتور محمد عمارة الذي يؤكد أيضا على أهمية إضافة مقصد الحفاظ على حقوق الإنسان. وربما يمكن اعتبار ابن باديس واحدا من هؤلاء، وخاصة في حديثه عن مقصد الحفاظ على الحرية، الذي يعتبره كلية عظيمة من كليات الحياة الإنسانية السوية السليمة.

وقد جمع ابن باديس هذه المقاصد عند تفسيره لقوله تعالى: «ولا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا»، إلى قوله عز وجل: «... ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا» «الإسراء/ ٢٢ ـ ٣٩»، فقال:

«قد تضمنت هذه الآيات على قلتها؛ الأصول التي عليها تتوقف حياة النوع البشري وسعادته:

من حفظ النفوس والعقول: «ولا تقف ما ليس لك به علم..»

والأنساب، والأموال، والحقوق: «وأوفوا بالعهد...» «وأوفوا الكيل...»

والأعراض: «ولا تقربوا الزنا...» «ولا تقف...»

والدين الذي هو عمدة ذلك كله، وفي حفظه حفظ لجميعها.

وفي افتتاح الآيات بقوله تعالى: «لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد ملوما مخذولا»، وختمها بقوله: «ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا»، بيان من الله تعالى لخلقه، بأن الدين هو أصل الكمالات كلها، وهو سياج وقايتها وسور حفظها، وإن التوحيد هو ملاك الأعمال وقوامها، ومنه بدايتها وإليه نهايتها»[9].

وتفصيل هذا الإجمال، كما يلي:

أ - حفظ الدين:

الدين، في عرف العلماء بالشريعة الإسلامية: «وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات»، أو هو «وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم الصلاح في الحال والفلاح في المآل»[10].

والمقصود بحفظ الدين ربط الإنسان بتعاليمه، والعمل على دوام هذه الرابطة، بحيث يتحلى الإنسان بتعاليم الدين، ويسير عليها في سائر أطوار حياته، ويستهدي بها في كل شأن من شؤونه، ويظهر أثرها في كل سلوك من سلوكاته.

ويمثل حفظ الدين بهذا المعنى - عند ابن باديس - أهمية بالغة، فحاجة الإنسان إلى الدين تفوق حاجته إلى سائر المصالح الأخرى كلها، بل إن تحقق مصلحة الدين يفضي - بالضرورة - إلى تحقيق سائر المصالح الأخرى، والعكس غير صحيح. وهذه الحاجة لدى الإنسان إلى الدين تنبع مما ركب عليه كيانه من تكوين متميز. يقول ابن باديس:

«الإنسان مهيأ للكمال بما فيه من الجزء النوراني العلوي، وهو روحه. ومعرض للسقوط والنقصان بما فيه من أخلاط عناصر جزئه الأرضي

---

9 - تفسير ابن باديس، ص: 146.

10 - مسعود فلوسي: نظرية المقاصد في الشريعة الإسلامية، ص: 121. وفيه يمكن الوقوف على تفاصيل أخرى في الموضوع.

الظلماني، وهو جسده. ولا يخلص من كدرات جثمانه ولا ينجو من أسباب نقصانه إلا بعبادة ربه التي بها صفاء عقله وزكاء نفسه وطهارة بدنه في ظاهره وباطنه. فبعبادة ربه يكمل فيرقى في مراتب الكمال، ويدنو من الملأ الأعلى عند الرب ذي الجلال والإكرام»[11].

ويقول في موضع آخر:

«هذا العالم بسمائه وأرضه، وأزواجه، هو فتنة للإنسان بما فيه من لذائذ ومن جمال، وما فيه من قوة وما فيه من سلطان. وقد ركبت في الإنسان شهواته وأهواؤه، وسلط عليه الشيطان يغويه ويزين له. فكل هذا العالم إذا ذهب فيه الإنسان مع أهوائه وشهواته تحت إغراء الشيطان وتزيينه، فإنه ينحط إلى أسفل سافلين، ويصير عبدا لأهوائه وشهواته وشيطانه، ولكل ما فتنه من العالم وذهب بلبه. وقد ينتهي به ذلك إلى عبادته من دون خالقه.. فهذا العالم بهذا الاعتبار شر وبلاء وهلاك يجب الفرار والهروب منه، ولا يكون هذا الفرار منه إلا إلى خالقه بالإيمان به، والتصديق لرسله، والدخول تحت شرعه. فبذلك يعرف الإنسان كيف يجعل حدا لأهوائه وشهواته وكيف يضبطها بنطاق الشرع وزمامه، وكيف يدفع عنه كيد شيطانه، وكيف يتناول سماء العالم وأرضه وأزواجه بيد الشرع، فيعرف ما فيها من نعمة وحكمة، فيستغلها بهداية الشرع، مفرقا علميا وعمليا بين منافعها ومضارها، فيعظم بها انتفاعه ويزداد فيها اطلاعه واكتشافه، فتتضاعف عليه منها الخيرات والبركات، ويزداد علمه وعرفانه، ويقوى يقينه وإيمانه، ويعظم لله بره وشكرانه، فيكون له ذلك العالم جنة الدنيا وقنطرة لجنة الأخرى، ويفوز من الدارين بالمبتغى. كل هذا بفراره من المخلوقات إلى خالقها فسلم من شرها وفاز بخيرها، فمن هرب من المخلوقات إلى خالقها نجا، ومن فر من الخالق إلى شيء من مخلوقاته كان من الهالكين»[12].

لأجل ذلك، فإن «الحاجة إلى إرشاد الله وتوفيقه دائمة متجددة، فكل

---

11 ـ تفسير ابن باديس، ص: 207.

12 ـ م. ن، ص: 465 ـ 466.

عمل من أعمال الإنسان، وكل حالة من أحواله هو محتاج فيه إلى هداية الله ودلالته، ليعرف ما يرضاه الله منه مما لا يرضاه، وهو محتاج فيه إلى توفيق الله وتيسيره ليقوم بما يرضاه منه وشرعه له ودله عليه. ولن يزال العبد - غير المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم - تغشاه ظلمات الشبهات والشهوات، فيحتاج إلى دلالة الله وتوفيقه، ليخرج منها إلى نور الإيمان والاستقامة»[13].

ثم «إن الناس كلهم في حاجة مشتركة إلى بعضهم. وما من أحد إلا وله حقوق على غيره، ولغيره حقوق عليه، ولهذه الحاجة المشتركة والحقوق المتزجة، كان الاجتماع والتعاون ضروريين لحياة المجتمع البشري واطراد نظامه. وقيام كل واحد من أفراد المجتمع بما عليه من حقوق نحو غيره هو الذي يسد تلك الحاجة المشتركة بين الناس. وعندما يؤدي كل واحد حق غيره فليست خدمته له وحده، بل هي خدمة للمجتمع كله، وبالأحرى هي خدمة له هو نفسه، لأنه جزء من المجتمع، وما يصيب الكل يعود على جزئه.

فإذا تواردت أفراد المجتمع على هذه التأدية سعدت وسعد مجتمعها بنيله حاجات الحياة ولوازم البقاء والتقدم في العمران. أما إذا توانى الأفراد في القيام بالحقوق، وقصروا في تأديتها إلى بعضهم، فإن الحاجة المشتركة، من العلم والثقافة وحفظ الصحة والأخلاق وأنواع الصناعة، تتعطل، وبتعطلها يختل نظام الاجتماع، ويعود إلى الانحلال والتقهقر، وينحط بأفراده إلى أسفل الدركات»[14].

والدين وحده هو الذي تكفل بحفظ حقوق الناس تجاه بعضهم البعض، وعمل على تنظيم الواجبات والحقوق في دائرة المجتمع كله، حتى يستفيد الجميع ولا يضيع حق أحد، وذلك بما شرعه من أحكام وما رسمه من حقوق وواجبات.

ويؤكد ابن باديس أن وظيفة الدين هي بيان أصول القبائح للحذر منها، والإرشاد إلى أصول المصالح للعمل على تحصيلها، التي هي مركوزة

---

13 - تفسير ابن باديس، ص: 425.

14 - م. ن، ص: 102 - 103.

في الفطرة الإنسانية، وهذا مساعدة للإنسان للتغلب على نفسه وشهواته، باستثارة مكامن الحق والخير في نفسه، فيقول:

«من رحمة الله تعالى بخلقه أن ركز في فطرهم إدراك أصول القبائح والمحاسن، ليسهل انقيادهم للشرع عندما تدعوهم الرسل إلى فعل المحاسن وترك القبائح، وتأتيهم بما هو معروف في الحسن أو القبح لهم فتبين لهم حكم الله فيه ومالهم من الثواب أو العقاب عليه»[15].

فمهمة الدين في الحياة؛ تربية الإنسان وتقويم سلوكه وأخلاقه، حتى يصبح عبدا لله بالسلوك والاختيار، كما أنه عبد له بالقسر والاضطرار، و«تربية النفوس، تكون بالتخلية عن الرذائل، والتحلية بالفضائل»[16].

وصلب الدين وأساسه هو الإيمان بالله واليوم الآخر، قال ابن باديس تعليقا على قوله تعالى: «ولا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا»: «هذا هو أساس الدين كله، وهو الأصل الذي لا تكون النجاة ولا تقبل الأعمال إلا به، وما أرسل الله رسولا إلا داعيا إليه، ومذكرا بحججه، وقد كانت أفضل كلمة قالها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي كلمة لا إله إلا الله، وهي كلمته الصريحة فيه، ولا تكاد سورة من سور القرآن تخلو من ذكره والأمر به والنهي عن ضده»[17].

ويعتبر ابن باديس أن الدين بمعنى الإسلام هو منهج الحياة السعيدة، الذي من دون السلوك عليه والعمل بأحكامه لن تجد الإنسانية سعادتها أبدا، فهي ـ بسلوكها على غيره ـ في هم وفي عناء وفي شقاء. ذلك أن «الإسلام عقد اجتماعي عام، فيه جميع ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة، لسعادته ورقيه، وقد دلت تجارب الحياة كثيرا من علماء الأمم المتمدنة، على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام، على مبادئ الإسلام، فالمسلم الفقيه في الإسلام، غني به عن كل مذهب من مذاهب

---

15 ـ تفسير ابن باديس، ص: 119.

16 ـ م. ن، ص: 142.

17 ـ م. ن، ص: 82.

الحياة»[18].

وحتى يرفع الإمامُ اللبسَ الذي قد يعتري بعض العقول حين تتصور أنها على الإسلام وأنها لذلك ليست في حاجة إلى أن يدعوها إليه، يصر رحمه الله على أن الإسلام الذي يعنيه ليس هو هذا الذي يتلبس به معظم المسلمين والجزائريين منهم خاصة دون أن يكون له في واقع حياتهم أي أثر، فهذا إسلام وراثي ليس لهم منه إلا العنوان، أما الإسلام الحقيقي المطلوب، فهو الإسلام الذاتي «إسلام من يفهم قواعد الإسلام ويدرك محاسن الإسلام في عقائده، وأخلاقه وآدابه، وأحكامه، وأعماله، ويتفقه ـ حسب طاقته ـ في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويبني ذلك كله على الفكر والنظر، فيفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبرهانه، وما ليس منه بقبحه وبطلانه، فحياته حياة فكر، وإيمان وعمل، ومحبته للإسلام محبة عقلية قلبية، بحكم العقل والبرهان، كما هي بمقتضى الشعور والوجدان»[19].

ويبين الإمام رحمه الله أهمية هذا الدين في حياة الإنسان من خلال عرض بعض مبادئه التي تسعى إلى إقامة مجتمع إنساني تسوده الأخوة الإنسانية العامة وتملأ أرجاءه المحبة والتعاون والوئام، فيقول:

«لما نظرنا في الإسلام وجدناه الدين الذي يحترم الإنسانية في جميع أجناسها، فيقول: «ولقد كرمنا بني آدم»، ويقرر التساوي والأخوة بين جميع تلك الأجناس، ويبين أنهم كانوا أجناسا للتمييز لا للتفضيل وأن التفاضل بالأعمال الصالحة فقط فيقول: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»، ويدعو تلك الأجناس كلها إلى التعاطف والتراحم بما يجمعها من وحدة الأصل ووشائج القرابة القريبة والبعيدة فيقول: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام». ويقرر التضامن الإنساني العام بأن الإحسان

---

18 ـ الشهاب، ج. 3، م. 12

19 ـ آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج: 4، ص: 124.

إلى واحد إحسان إلى الجميع وأن الإساءة إلى واحد إساءة إلى الجميع، فيقول: «من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا». ويعترف بالأديان الأخرى ويحترمها ويسلم أمر التصرف فيها لأهلها، فيقول: «لكم دينكم ولي دين». ويقرر شرائع الأمم ويهون عليها شأن الاختلاف ويدعوها كلها إلى التسابق في الخيرات فيقول: «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون». ويأمر بالعدل العام مع العدو والصديق فيقول: «ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا». ويحرم الاعتداء تحريما عاما على البغيض والحبيب، فيقول: «ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا».. ويأمر بالإحسان العام فيقول: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان»، ويأمر بحسن التخاطب العام فيقول: «وقولوا للناس حسنا».

فلما عرفنا هذا وأكثر من هذا في الإسلام - وهو الدين الذي فطرنا الله عليه بفضله - علمنا أنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به، وأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه، فعاهدنا الله على أن نقف حياتنا على خدمته ونشر هدايته، وخدمة كل ما هو بسبيله ومن ناحيته»[20].

فحفظ الدين عند ابن باديس يأتي في المرتبة الأولى، إذ هو رأس الغايات التي يجب على المصلحين والدعاة أن يهدفوا إلى تحقيقها، إذ بتحققها تتحقق سائر الغايات الأخرى وبغيابها لا يجدي توفير المقاصد الأخرى، بل إنها لن تتوفر أبدا.

---

20 - آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، وزارة الشؤون الدينية - الجزائر، طبع دار البعث - قسنطينة، ط. 1، 1406 هـ، 1986 م، ج. 4، ص 111 - 112.

ب ـ حفظ النفس:

ونعني بالنفس؛ الكيان الإنساني في جملته، سواء تعلق الأمر بالكيان كله عامة، أو تعلق بكل جزء من أجزائه خاصة.

فحفظ النفس مقصد أسمى له هو الآخر أهميته البالغة ومكانته الخاصة ضمن المصالح التي تعمل الشريعة الإلهية على المحافظة عليها، فهو يأتي في المرتبة الثانية بعد حفظ الدين. وفي ذلك يقول ابن باديس رحمه الله:

«هذه النفوس البشرية جاءت الشرائع السماوية كلها بإيجاب حفظها، فكان حفظها أصلا قطعيا، وكلية عامة في الدين»[21].

ومقتضى حماية النفس؛ إصلاح الجسد والروح والعناية بهما وحمايتهما من المضار المفسدة التي قد تتعلق بهما، «فإصلاح البدن بمعالجته بالحمية والدواء، وإصلاح النفس بمعالجتها بالتوبة الصادقة. وإفساد البدن بتناول ما يحدث به الضرر، وإفساد النفس بمقارفة المعاصي والذنوب. وهكذا تعتبر النفوس بالأبدان في باب الصلاح والفساد في كثير من الأحوال، غير أن الاعتناء بالنفوس أهم وألزم، لأن خطرها أكبر وأعظم... فإذا صلحت النفس صلح البدن كله، بجريان الأعضاء كلها في الأعمال المستقيمة، وإذا فسدت النفس من ناحية العقيدة، أو ناحية الخلق، أو ناحية العلم، أو ناحية الإرادة، فسد البدن، وجرت أعمال الجوارح على غير وجه السداد»[22]. فحفظ النفس إنما يتم ويكمل بحفظ الدين أولا، ومن غير تدين، فإن الإنسان ستقوده شهواته وأهواؤه إلى التهلكة لا محالة.

ولقد أدرك ابن باديس رحمه الله أهمية مقصد الحفاظ على النفس، ومكانته في الشريعة، وضرورة العناية به والعمل على إبقائه ودوام سلامته. فعند تفسيره لقوله تعالى: «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم» «المؤمنون/ ٥١»، علق قائلا:

«خُلِق الإنسانُ مركبا من روح وبدن، وإنما بقاء بدنه بالغذاء، وإنما

---

21 ـ تفسير ابن باديس، ص. 116.

22 ـ م. ن، ص: 96.

كمال روحه بالعمل. فأمر الله بالأكل لبقاء البدن واشترط أن يكون من الطيبات لأنها هي التي تغذي ولا تؤذي. أما الخبائث ففيها الأذى ويتفه أو يَعْدِم منها الغذاء»[23].

ومن الشرائع التي قررتها الشريعة الإسلامية لحماية النفس الإنسانية من التعدي عليها بالإهدار أو الانتقاص، ما جاء في قوله تعالى: «ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق. ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا» «الإسراء/ ٣٣».

يقول ابن باديس في تفسير هذه الآية:

«القتل وسفك الدم عمل قديم في البشر، فله ـ على الجملة ـ ضراوة عليه وإلف به، وأعظم ما يكف الشخص عن نفس أخيه خوفه على نفسه. فلذلك شرع الله القصاص بين النفوس»[24].

ومن حفظ النفس ـ عند ابن باديس ـ المحافظة على الصحة، يقول في وصيته للمسلم الجزائري:

«حافظ على صحتك، فهي أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك ولغيرك، تجنب العفونة فإنها مصدر جراثيم الأمراض ومثار نفور وبغض لطلعتك، ومجلبة سب لجنسك ولدينك الشريف البريء منك في مثل هذه الحال.

نظف بدنك، نظف ثوبك، تبعث الخفة والنشاط في نفسك، وتنبل في عين غيرك، وتجلبه على الاستئناس بمعاشرتك»[25].

ج ـ حفظ العقل:

العقل هو جملة القدرات والطاقات التي مكن الله عز وجل منها

---

23 ـ تفسير ابن باديس، ص: 456.

24 ـ م. ن، ص. 121

25 ـ آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، وزارة الشؤون الدينية ـ الجزائر، ج. 3، ص. 42، مطبعة البعث ـ قسنطينة، ط. 1، 1406 هـ، 1985 م.

الإنسان، ليستعين بها في إدراك ما يحيط به من موجودات وكائنات، ويكشف عما هو خاف عنه منها، فيوسع من آفاقه بما يعينه على القيام بمهمة الخلافة في الأرض والقيام بحمل الأمانة التي أناطها به يوم خلقه وأسكنه هذه الأرض ليعمرها ويتحرك عليها.. العقل - إذن - هو الأداة التي يميز بها الإنسان بين النافع والضار، بين الخير والشر، بين الصالح والطالح. فهو ذو أهمية بالغة في الحياة الإنسانية بحيث لا يكاد يستغني عنه إنسان، إذ أن فقده يجعل الإنسان يعيش حياته كالبهيمة لا يدرك ما يصلحه مما يفسده، ولا يكاد يميز بين ما هو نفع محض وبين ما هو شر محض.

فبالعقل - كما يؤكد ابن باديس - «يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان، وعقله هو القوة الروحية التي يكون بها التفكير، وتفكيره هو نظره في معلوماته التي أدرك حقائقها، وأدرك نسب بعضها لبعض إيجابا وسلبا، وارتباط بعضها ببعض نفيا وثبوتا، وترتيب تلك المعلومات بمقتضى ذلك الارتباط على صورة مخصوصة ليتوصل بها إلى إدراك أمر مجهول. فالتفكير اكتشاف المجهولات عن طريق المعلومات، والمفكر مكتشف ما دام مفكرا.

ولما امتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل والتفكير، امتاز عنه بالتنقل والتحول في أطوار حياته، ونظم معيشته بمكتشفاته ومستنبطاته.

وبقدر ما تكثر معلومات الإنسان، ويصح إدراكه لحقائقها ولنسبها، ويستقيم تنظيمه لها، تكثر اكتشافاته واستنباطاته في عالمي المحسوس والمعقول، وقسمي العلوم والآداب»[26].

ثم إن «سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطا وثيقا، يستقيم باستقامته ويعوج باعوجاجه، ويثمر بإثماره، ويعقم بعقمه، لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته، وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات، واعتقاداته

26 - تفسير ابن باديس، ص: 131.

ثمرة إدراكه الحاصل عن تفكيره ونظره»[27] .

ويعتبر ابن باديس أن الإدراك غير الصحيح للأفكار والمعلومات في مختلف شؤون الحياة، سبب إلى فساد العقل واختلال السلوك. فالإنسان «إذا لم يصح إدراكه للحقائق، أو لنسبها، أو لم يستقم تنظيمه لها، كان ما يتوصل إليه بنظره خطأ وفسادا في فساد. ولا ينشأ عن هذين إلا الضرر في المحسوس والضلال في المعقول. وفي هذين هلاك الفرد والنوع جزئيا وكليا من قريب أو من بعيد. وهذا هو طور انحطاط الأمم، الانحطاط التام، وذلك عندما يرتفع منها العلم، ويفشو الجهل، وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها، فتتخذ رؤوسا جهالا لأمور دينها وأمور دنياها، فيقودونها بغير علم، فيضلون ويضلون، ويهلكون ويهلكون، ويفسدون ولا يصلحون»[28] .

وقد عرف ابن باديس رحمه الله هذه الأهمية التي للعقل، فقال يخاطب المسلم الجزائري، يعظه ويوصيه: «حافظ على عقلك، فهو النور الإلهي الذي مُنِحْتَه لتهتدي به إلى طريق السعادة في حياتك»[29] .

ولأن ابن باديس يعتقد أن الله عز وجل قد أكرم الإنسان وميزه عن سائر المخلوقات بالعقل الذي هو أعظم نعمة إلهية أنعم بها على الإنسان، فهو يرى أن من الواجب على هذا الإنسان أن يعرف قيمة عقله، ويكرمه بتنزيهه عن الأوهام والأباطيل، وينزه نفسه عن مساوئ الأخلاق، وفي ذلك يقول: «قد استودعنا خالقنا خلقة كريمة فعلينا أن نعرف قيمتها وأن نقدرها، وحق على من كرمه ربه أن يكرم نفسه، فعلينا أن نكرم أنفسنا بتكريم أرواحنا بتنزيهها عن مساوئ الأخلاق وتحليتها بمكارمها، وتكريم عقولنا بتنزيهها عن الأوهام والشكوك والخرافات والضلالات وربطها على العلوم والمعارف وصحيح الاعتقادات»[30] .

---

27 ـ تفسير ابن باديس، ص: 133.

28 ـ م. ن، ص: 132.

29 ـ آثار ابن باديس، ج: 3، ص. 42.

30 ـ تفسير ابن باديس، ص: 172.

ويرى ابن باديس رحمه الله أن العقول لكي تتحرر من ظلمات الجهل والخرافة، لابد من صقلها وتغذيتها بالعلم والأدب:

«كما تحتاج الأبدان إلى غذاء من المطعوم والمشروب، كذلك تحتاج العقول إلى غذاء من الأدب الراقي والعلم الصحيح، ولا يستقيم سلوك أمة وتنقطع الرذيلة من طبقاتها وتنتشر الفضيلة بينهم إلا إذا تغذت عقول أبنائها بهذا الغذاء النفيس»[31].

فالعلم - كما يؤكد ابن باديس - «هو الأصل الذي تنبني عليه سعادة الدنيا والأخرى، وهو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا»[32].

وما ذلك إلا لأن العلم ما هو في حقيقته إلا نتاج تراكم الخبرات الإنسانية المتنوعة على مر القرون والأجيال، والتعلم هو استحضارٌ إلى ساحة العقل والفهم لهذه الخبرات، واستفادةٌ منها في مسيرة الحياة التي يقضيها الإنسان على هذه الأرض. وكلما ازداد الإنسان علما ازدادت قدرته على التحكم في الأشياء التي تحيط به، وازداد تمكنه من تسخيرها واستثمارها في تحقيق مصالحه وتيسير حياته.

لأجل ذلك كانت عناية الشريعة الإسلامية بنشر العلم والتشجيع على التعلم والدعوة إلى تيسير سبله وأسبابه للمتعلمين الذين يجب عليهم أن ينهضوا إليه ولا يتوانوا في طلبه. والمقصود من ذلك تحرير العقل وحفظه من الانهزام أمام الجهل والضلال الذي يصيره فريسة للبدع والخرافات والانحرافات في أمور الدين والدنيا.

لكن نعمة العقل هذه التي منحنا الله إياها، لنستفيد منها في حياتنا ونوظفها في تسخير ما يحيط بنا، لا يجوز لنا أن نتعدى بها حدودها وأطوارها، بل ينبغي أن نوظفها فيما هو مطلوب منها ونتوقف بها عند حدود

---

31 - ابن باديس: جريدة المنتقد، العدد الأول، 2 جويلية 1925. نقلا عن: تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط. 4، المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر، 1984، ص: 297.

32 - تفسير ابن باديس، ص: 218.

القدر المتاح لنا، فلا نتجاوز بها طاقتها. يقول ابن باديس في ذلك:

«إن الله تعالى أعطانا العقل الذي ندرك به الآيات التي نصبها لنا لنستدل بها على وجوده ووحدانيته وقدرته، وعلمه وحكمته، ولطفه ورحمته. وبالنظر في هذه الآيات نصل ـ بتيسير الله ـ بعقولنا إلى إدراك بدائع عجيبة، وأسرار غريبة ما تزال تتجلى لنا ما دمنا نتأمل فيها ونعتبر بها. وما يزال الإنسان يكتشف منها حقائق مضت عليها أزمان وهو يعدها من المحال، ويجتني منها فوائد ما كانت تخطر له ـ في أحقابه الماضية ـ على بال.

غير أن استجلاء هذه الحقائق واستحصال هذه الفوائد من الآيات الكونية ـ على نفاستها وعظيم نفعها ـ محفوف بخطر الإعجاب بذلك العقل حتى يحسب أنه محيط بالحقائق كلها، وأن مدركاتها يقينيات بأسرها، فيؤديه حسبانه الأول إلى الفتنة بالمدركات، فيحسب أن لا شيء بعدها، فقد يخرج إلى إنكار خالقها، ويؤديه حسبانه الثاني إلى الذهاب في ظنونه وأوهامه وفرضياته إلى غايات لا نسب بين اليقين وبينها. فكان من لطف الله بالإنسان أن جعل لعقله حدا يقف عنده وينتهي إليه، ليسلم من هذا الخطر، خطر الإعجاب بالعقل»[33].

فالشارع ـ إذن ـ كما حفظ العقل بتنميته بالعلم والفهم والبحث والنظر، وحماه من التلف والضياع بتحريم المسكرات والمخدرات، حماه أيضا بأن رسم له الحدود التي لا يجوز له أن يتعداها، لأنه إن تعداها يكون قد تجاوز وظيفته ودخل في مجال غير مجال حركته، وهو ما قد يفضي به إلى الإضرار بوظيفته وبوظائف سائر الطاقات الأخرى التي متع الله عز وجل بها الإنسان.

د ـ حفظ النسل:

يُراد بالنسل الولد والذرية التي تعقب الآباء وتخلفهم في بقاء المسيرة الطويلة للنوع البشري. وقد خلق الله البشر من نفس واحدة، وخلق منها

---

33 ـ تفسير ابن باديس، ص: 358 ـ 359.

زوجها، وعن طريق التناسل والتوالد بث منهما رجالا كثيرا ونساء. ولقد وضع الله تعالى في الذكر والأنثى دوافع طبيعية ونوازع فطرية تكفل للنوع الإنساني البقاء والاستمرار، وعزز تلك الدوافع والنوازع بالضوابط والقواعد التي تكفل للنسل أحسن السبل وأسلم الطرق وأكرمها، في الوجود والاستمرار.

ولأن حفظ النسل يعني بالضرورة حفظ الحياة واستمرارها، فقد كان إحدى أهم الكليات التي جاءت الشريعة الإسلامية بحفظها والعناية بحمايتها.

وقد شرع الشارع الحكيم لحماية هذه الكلية؛ نظام الزواج، ونهى عن التبتل والانقطاع. يقول ابن باديس:

«التزوج وطلب النسل هو السنة، سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وسنة أصحابه عليهم الرضوان، وسنة عباد الرحمن. وليس من شريعته الحنيفية السمحة؛ الرهبانية والتبتل... ففي السعي على الأهل ما هو أعظم من العبادة. وفي التزوج تكثير سواد الأمة والمدافعين عن الملة والقائمين بمصالح الدين والدنيا. وفي هذا ما فيه من الأجر والمثوبة، وفي التبتل مخالفة السنة، وانقطاع النسل، وضعف الأمة، وتعطيل المصالح، وخراب العمران، وكفى بهذا شرا وفسادا»[34].

وكما نهى الشارع عن التبتل وطلب التزوج حماية للنسل وحفاظا عليه وعلى سلامته، فقد نهى في المقابل عن كل سلوك من شأنه أن يهدر قيمة هذا النسل أو يعمل على تشويهه والتأثير عليه ماديا أو معنويا.

يقول ابن باديس في تفسير قوله تعالى: «والذين لا يدعون مع الله إلها آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون» «الفرقان/ ٦٨»: «قامت الشريعة على المحافظة على حقوق الله، وحقوق عباده، وحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا. فمن دعا مع الله غيره، وأشرك به سواه، فقد أبطل حق الله وأعدم عبادته. ومن قتل النفس فقد تعدى على أول

---

34 ـ تفسير ابن باديس، ص: 296 ـ 297.

حق جعله الله لعباده بفضله وهو حق الوجود، وعمل على إبطال وجودهم وفناء نوعهم وزوال عبادتهم. فلهذا قرن قتل النفس بدعاء غير الله.. ولما كان الزنى فيه بطلان النسب وفساد الخلق والجسد، وذلك مؤد إلى الاضمحلال والزوال، والشرور والأهوال، قرن بقتل النفس، فذلك قتل حقيقي وهذا قتل معنوي»[35] .

وعند تفسيره لقوله تعالى: «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقكم وإياهم إن قتلهم كان خطئا كبيرا . ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا» «الإسراء/ ٣٢ ـ ٣٣». قال ابن باديس رحمه الله في تفسير الآية الأولى:

«هذا الفعل ـ أي وأد البنات ـ الذي كان في الجاهلية.. هو فعل مودٍ إلى قطع النسل وخراب العمران، لا تسلم منه الأمم الأخرى في مختلف الأزمنة والبلدان، إما بالقتل بعد الولادة، وإما بإفساد الحمل بعد التخليق، وهو حرام باتفاق، وقد يكون بالامتناع من التزوج أو بعد الإنزال في الفرج وهو العزل.

والآية كما نهت عن القتل، رغبت في النسل بذكر ضمان الرزق، فعلى المؤمن أن يسعى لذلك من طريقه المشروع، وأن يتلقى ما يعطيه الله من نسل، ابن أو بنت، بفرح، لنعمة الله وثقة برزق الله، وإيمان بوعده»[36] .

أما الآية الثانية، فبين من خلال تفسيرها الوسائل التي أقامها الشارع لحماية النسل من جانب العدم، فقال رحمه الله:

«في الزنا إراقة للنطفة، وسفح لها في غير محلها، فلو كان منها ولد لكان مقطوع النسب، مقطوع الصلة، ساقط الحق، فمن تسبب في وجوده على هذه الحالة فكأنه قتله. ولهذا بعدما نهى عن قتل الأولاد نهى عن الزنا الذي هو كقتلهم، لأنه سبب لوجودهم غير مشروع...

وقد حمى الشرع الشريف العباد من هذه الفاحشة بما فرض من

---

35 ـ تفسير ابن باديس، ص: 273.

36 ـ م. ن، ص: 118.

الحجاب الشرعي، وهو ستر الحرة ما عدا وجهها وكفيها وجمع ثيابها عند الخروج بالتجلبب، وبما حرم من تطيب المرأة وقعقعة حليها عند الخروج، وخلوتها بالأجنبي، واختلاط النساء بالرجال»[37].

هـ - حفظ المال:

المال في الدنيا عرض زائل وسند مائل، فهو إلى زوال وإن طالت به الأيام والأحوال.. لذلك كان من السفاهة في الرأي والضلالة في الاعتقاد ما يتصوره بعض الناس من أن تحصيل المال هو الطريق إلى الرفاهية والسعادة والتخلص من كل العقبات والمشكلات.

إن ابن باديس يستنكر هذا الاعتقاد ويسفه من يراه، فيقول:

«كل الناس يسعى لتحصيل ماله في هذه الحياة من شهوات ورغبات، لتحصيل الراحة والهناء والسعادة.

ولما كانت المنافع الموزعة بين البشر لا تُنال في الغالب إلا بطريق التبادل، وكان التبادل مبنيا على التعاوض، وكان العوض المحبوب عند كل أحد والمحصل لكل عوض هو المال، كان المال عند كل إنسان محبوبا لديه بطبعه وخيرا من كل شيء، لتحصيله لكل شيء، وكان أصحاب الأموال في نظر العموم بمظاهرهم الخلابة هم أهل الراحة والهناء والسعادة.

الغني سعيد والفقير شقي، هذا حكم ضروري عند عامة الناس، يصدرونه بسرعة ويتلقونه بالتسليم، فمقياس الهناء هو الغناء، ومقياس الشقاء هو الفقر.

لا يا صاح! بل إننا كثيرا جدا ما وجدنا من نسميه غنيا لوفرة ماله في عناء وشقاوة، ذلك لأن ثم أشياء غير المال تغني عنه في تحصيل السعادة وتوصل حتما إليه، ولا يغني عنها هو في ذلك ولا يوصل إليها، فهي إذا قطعا خيرا منه.

---

37 - تفسير ابن باديس، ص: 118 - 119.

هذه الأشياء هي الصحة والرجاء والأمل والعمل والوقت»[38].

فالتفاضل بين الناس ـ في نظر ابن باديس ـ لا يجوز أن يستند إلى معيار الغنى والفقر، بالنظر إلى كثرة المال أو قلته:

«وأما المال فلم يكن أبدا سببا في فضل القدر والمنزلة، ولذا قال تعالى: «والله فضل بعضكم على بعض في الرزق»، فجعل التفضيل فيه، فيزيد فيه حظ بعض الناس على بعض، ولم يقل «بالرزق»، لأن الرزق ليس سببا لتفاضل الناس في الأقدار والمنازل، لا دنيا ولا أخرى، لأن منازل الآخرة يتفاضلون فيها بما قدموا من صالح الأعمال، ومنازل الدنيا يتفاضلون فيها ـ على الحق والعدل ـ بالكفاءات والأخلاق والأعمال»[39].

ويحدد ابن باديس المفهوم الصحيح الذي ينبغي أن ننظر به إلى المال، فيقول: «المال قوام الأعمال، وأداة الإحسان، وبه يمكن القيام بالحقوق، فصاحبه هو مالكه، ولكن الحقوق فيه تشاركه، ولا يقوم له بوجوه الحقوق إلا إذا أمسكه عن وجوه الباطل، ثم لا يقوم له بجميع تلك الوجوه إلا إذا أحسن التدبير في التفريق، وأصاب الحكمة في التوزيع»[40].

وظيفة المال في نظر ابن باديس ـ إذن ـ ليست هي أن يكون معيارا توزن عنده أقدار الناس، وإنما له وظيفة أخرى، تلك الوظيفة التي حرص الشارع على تحقيقها، وشرع من الأحكام لحفظ المال وحمايته ما هو كفيل بإيجادها وصيانتها.

هذه الوظيفة تتمثل في اتخاذ المال وسيلة للتقرب إلى الله عز وجل ببذله في مسالك البر والخير، وتوظيفه فيما هو خير للإنسان في الدنيا والآخرة، وتنميته بالوسائل المشروعة، والعمل على الحفاظ عليه بدفع كل ما من شأنه أن يؤدي إلى إهداره أو تبديده.

---

38 ـ آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، وزارة الشؤون الدينية ـ الجزائر، مطبعة البعث ـ قسنطينة، ج: 5، ص: 432، ط: 1، 1412 هـ، 1991 م

39 ـ م. ن، ص: 444.

40 ـ تفسير ابن باديس، ص: 105 ـ 106.

فالمال سلاح ذو حدين، إما أن يوظفه الإنسان في خدمة مصالحه المشروعة وفي خدمة المصلحة العامة للأمة، فيفوز بمرضاة الله، أو يسخره في خدمة نزواته وشهواته ويمسكه عن أبواب الخير والمصلحة العامة فيكون جزاؤه المقت والعقاب، يقول ابن باديس:

«المال، كما هو أداة لكل خير، كذلك هو أداة لكل شر، فالمبذر المفرق لماله في وجوه الباطل، بالغ - لا محالة - بماله إلى شر كثير وفساد كبير، ولذلك وصف بأنه أخ الشيطان الذي هو أصل الشر والفساد، ووصف تعالى الشيطان بقوله: «وكان الشيطان لربه كفورا»، لأنه أنعم عليه بنعمة، فبدلا من أن يستعملها في طاعته في الخير، قصرها على المعصية والشر. وذِكْرُ هذا من وصف الشيطان - بعد ما تقدم - يفيد أنه من وصف المبذر أيضا، فالمبذر أخو الشيطان، والشيطان كان لربه كفورا، فالمبذر كان لربه كفورا، ذلك لأن الله تعالى أنعم عليه بالمال الذي هو أداة لكل خير، وعون عظيم على الطاعة، فجعله أداة في الشر، واستعان به على المعصية، ومكنه بالمال من نعمة القدرة على القيام بالحقوق فضيعها وقام بالشرور والمفاسد. وهذا من أقبح الكفر لنعمة ربه الذي كان به مضارعا للشيطان أخيه، والعياذ بالله»[41].

وفي وصيته للمسلم الجزائري، يؤكد ابن باديس على وظيفة المال، ويؤكد ضرورة المحافظة عليه وحسن التصرف فيه، فيقول:

«حافظ على مالك فهو قوام أعمالك، فاسلك كل سبيل مشروع لتحصيله وتنميته، واطرق كل باب خيري لبذله.

فاحذر بالوعة المضاربات الربوية في معاملاتك ومن مسارب السرف في جميع ملذاتك إذا كانت من المباحات، ودع ما إذا كانت من المحرمات»[42].

ففي هذه الوصية يؤكد ابن باديس على وسائل حماية المال من جانبي الوجود والعدم؛ فمن جانب الوجود ينبغي السعي لتحصيل المال من وجوه تحصيله المشروعة، وبذله أيضا في وجوه البذل المشروعة.. ومن جانب العدم؛

---

41 - تفسير ابن باديس، ص: 107.

42 - آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج. 3، ص. 42.

للحفاظ عليه ينبغي الابتعاد عن المسالك المعوجة التي من شأنها إهدار المال وحرمان صاحبه منه، سواء بالتعامل عن طريق الربا الذي هو باب إلى الافتقار، أو بالسرف والتبذير فيه حتى ينقضي ولا يجد صاحبه سبيلا إلى استرداده.

وإذا كان الإنسان مطالبا بالحفاظ على ماله الشخصي، فيعمل فيه بغير إسراف ولا تقتير مراعيا أحكام الله فيه، فكذلك لا يجوز له أن يعتدي على مال غيره بأي طريق من طرق الاعتداء الخفية أو الظاهرة. فحفظ مال الغير كالحفاظ على نفسه، والاعتداء على ماله كالاعتداء على نفسه تماما. يقول ابن باديس:

«مال المرء كقطعة من بدنه، ويدافع عنه كما يدافع عن نفسه، وبه قوام أعماله في حياته. فالأموال مقرونة بالنفوس في الاعتبار. فقرنت في النظم آية حفظ الأموال بآيات حفظ النفوس، كما قرن بينهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: «فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام»[43] »[44] .

وتزداد شناعة التعدي على المال، كلما كان صاحبه ضعيفا لا يقدر على حمايته بنفسه، وأضعف الناس هو اليتيم، كما قال تعالى: «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده»، «ومثل اليتيم في وجهي النهي المتقدمين غيره، فكل ذي ولاية أو أمانة على مال غيره يجب عليه أن يتحرى التحرير المذكور، كما يحرم على كل أحد أن يتعدى على مال غيره.. وإنما خص اليتيم بالذكر، لأنه ضعيف لا ناصر له، والنفوس أشد طمعا في مال الضعيف، فالعناية به أوكد، والعقوبة عليه أشد. ومن تأدب بأدب الآية في مال الضعيف كاليتيم، كان حقيقا أن يتأدب بأدبها في مال غيره»[45] .

و ـ الحفاظ على الحرية:

تمثل الحرية، في مختلف أبعادها؛ الفكرية والسياسية والثقافية

---

43 ـ من خطبته عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع.

44 ـ تفسير ابن باديس، ص: 123.

45 ـ م. ن، ص: 123 ـ 124.

والاجتماعية، عاملا مقدسا في الحياة الإنسانية، فما قامت الشعوب منذ فجر التاريخ تكافح وتنافح إلا في سبيل الحرية، ومن أجل الاستفادة مما تتيحه من انطلاق من أسر الاستعباد والتسخير والاستذلال. «فالحرية ـ كما هو معلوم ـ حاجة من الحاجات الأساسية التي يتطلع إليها الإنسان في كل مجالات تحركه، في تفكيره وسلوكه وحتى في معتقداته، لأنها هي التي تعطيه اعتباره وتمنحه كماله، وتجعله قادرا على اتخاذ المواقف الشخصية التي يرتضيها لنفسه ويقتنع بجدواها»[46].

ولقد كرم الله عز وجل الإنسان فخلقه حرا كريما، لا يقف موقف العبودية إلا أمام خالقه وبارئه الذي يملك أن ينفعه أو يضره، أن يميته أو يحييه، أما ما عدا ذلك، فكل مسخر للإنسان، وليس الإنسان مسخرا له.

ولقد أدرك ابن باديس رحمه الله ـ مبكرا ـ أهمية الحرية وحاجة النوع الإنساني إليها، فقال يؤكد عناية الشريعة الإسلامية بها وحرصها على تحقيقها في حياة الإنسان:

«حق كل إنسان في الحرية كحقه في الحياة، ومقدار ما عنده من حياة هو مقدار ما عنده من حرية، المعتدى عليه في شيء من حريته كالمعتدى عليه في شيء من حياته، وكما جعل الله للحياة أسبابها وآفاتها، جعل للحرية أسبابها وآفاتها، ومن سنة الله الماضية أنه لا ينعم بواحدة منهما إلا من تمسك بما لها من أسباب، وتجنب وقاوم ما لها من آفات.. وما أرسل الله الرسل عليهم الصلاة والسلام، وما أنزل عليهم الكتب، وما شرع لهم الشرع، إلا ليعرف بنو آدم كيف يحيون أحرارا، وكيف يأخذون بأسباب الحياة والحرية، وكيف يعالجون آفاتها، وكيف ينظمون تلك الحياة وتلك الحرية حتى لا يعدو بعضهم على بعض، وحتى يستثمروا تلك الحياة وتلك الحرية إلى أقصى حدود الاستثمار النافع المحمود المفضي بهم إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة، فرسل الله وكتب الله وشرائع الله كلها ضد لمن يقف في طريق بني آدم دون هذه الغاية العظيمة بالتعدي على شيء من حياتهم أو

---

46 ـ محمد الصالح رمضان وعبد القادر فضيل: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص: 131.

شيء من حريتهم. ولقد كانت هذه الشريعة المحمدية بما سنت من أصول، وما وضعت من نظم، وما فرضت من أحكام، أعظم الشرائع وأكمل الشرائع في المحافظة على حياة الناس وحريتهم...»[47].

وتأكيدا لما ذهب إليه رحمه الله من عناية الشريعة الإسلامية بالحرية واعتبارها مثل الحياة تماما، راح يضرب الأمثلة من أحكام هذه الشريعة، التي تعمل من خلالها على خدمة مبدأ الحرية وترقيته في الواقع الإنساني:

«الحياة حياتان، حياة الروح وحياة البدن، والحرية كذلك. وحياة الروح وحريتها هما أصل حياة البدن وحريته، وشرائع الإسلام منتظمة لذلك كله. ومما شرعه الله لتحصيل حرية الروح؛ صوم الشهر المبارك، شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، يترك فيه المؤمن طعامه وشرابه وشهوات بدنه، ويقبل على التهليل والتحميد والتسبيح، فيحرر روحه من سلطة الشهوة وسلطان المادة، ويسمو بها إلى عالم علوي ملكي من الطهر والكمال، ثم يقبل على تلاوة القرآن ـ بتدبر ـ فينير قلبه وروحه، ويحرر عقله من ربقة الجهل وقيود الأوهام والخرافات، فما يأتي عليه الشهر إلا وقد ذاق طعم الحرية الروحية العقلية، وخرج بحيوية قوية وحرية نيرة»[48].

لكن الحرية عند ابن باديس لا تعني حقا فرديا يمارسه الإنسان في حدود حاجاته ومطالبه الفردية، ولكنها تعني قبل كل شيء حقا جماعيا يشمل كل مظاهر الحياة، من حرية المعتقد إلى ممارسة الحقوق السياسية، لأن الحرية لا تظهر حقيقتها ولا تتجلى قيمتها إلا ضمن الجماعة، فالجماعة هي التي تحدد للإنسان مجال تحركه الحر، وهي التي تعطي للحرية دلالة معينة يلتزم بها أفراد الجماعة، حتى لا تتحول الحرية إلى شيء يضاد الحرية. لقد كانت الحقيقة الأساسية التي ينطلق منها ابن باديس في عمله الإصلاحي هي الحق في الحرية، ولكن هذا الحق ليس حقا مطلقا، فالحرية الفردية لا تعني شيئا، إذا لم تكن مستمدة من قيمة أوسع تشمل مجموع

47 ـ آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج: 5، ص: 454.

48 ـ م. ن، ج: 5، ص: 455.

الأمة. وكأن ابن باديس يريد أن يؤكد أن الحرية الفردية لا قيمة لها إذا كانت الأمة التي ينتمي إليها الفرد مستعبدة[49].

ويعتبر ابن باديس أن الحرية جزء من العقيدة الإسلامية. لذلك كان رحمه الله يركز على الرجوع إلى الأصول الإسلامية التي هي منبع الحقيقة الإنسانية، فالإنسان الذي يكون تفكيره تفكيرا إسلاميا صحيحا وسلوكه سلوكا متوافقا مع ما يدعو إليه الإسلام، يكون قد استوعب حقيقة الحرية ومدلولها الإنساني، ووظيفتها في التعامل مع الأسرة ومع البيئة ومع الناس[50].

إن فهم ابن باديس للحرية يتوافق مع فهمه للإسلام الذي يمقت الجور والاستبداد والظلم. وهذا ما جعله ينظر إلى الحرية باعتبارها عقيدة مهددة، في ظل الاستعمار الفرنسي، ينبغي حمايتها والمنافحة دونها. يقول مخاطبا الشعب الجزائري:

«أيها الشعب إنك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية هائم بها، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا حاملين للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيى من أجلها»[51].

وابن باديس في كل هذا الذي يعتقده في شأن الحرية، لا يبتعد - قيد أنملة - عن مبادئ الإسلام العامة وقواعده الكلية ومقاصده الأساسية، التي ما أريد منها كلها في الحقيقة إلا تقرير مبدأ الحرية للإنسان في البقاء والاعتقاد والتدين والتفكير والعيش الكريم.

2- المقاصد التفصيلية:

إدراك ابن باديس للمقاصد الشرعية لم يتوقف عند معرفة كلياتها، بل لقد امتد إلى إدراك تفاصيل مقاصد أحكامها الجزئية، فهو يدرك أن لكل

49- محمد الصالح رمضان وعبد القادر فضيل: إمام الجزائر، ص: 131.

50- م. ن، ص: 132.

51- الشهاب، ج: 5، مج: 6، ص: 176.

تشريع مقصد يهدف الشارع إلى تحقيقه من ذلك التشريع، سواء كان مما يتعلق بالعبادات أو المعاملات.

فهو يرى ـ مثلا ـ في ربط الصلوات بالأوقات «تعليم لنا لنربط أمورنا بالأوقات، ونجعل لكل عمل وقته، فللنوم وقته، وللأكل وقته، وللراحة وقتها، ولكل شيء وقته. وبذلك يضبط الإنسان أمر حياته، وتطَّرِد له أعماله، ويسهل عليه القيام بالكثير من الأعمال. أما إذا ترك أعماله غير مرتبطة بوقت، فإنه لا بد أن يضطرب عليه أمره، ويتشوش باله، ولا يأتي إلا بالعمل القليل، ويحرم لذة العمل، وإذا حرم لذة العمل أصابه الكسل والضجر فقل سعيه، وكان ما يأتي به من عمل ـ على قلته وتشويشه ـ بعيدا عن أي إتقان»[52].

ويؤكد ابن باديس على ما تبتغيه الشريعة من وراء توحيد التشريعات التعبدية بين المسلمين، من تحقيق الوحدة الدينية بينهم ولم شملهم وجمع نفوسهم على الوحدة والأخوة والتعاون، فيقول:

«الحَسَن في الشرع، والجميل في الذوق، هو أن يتحد الناس في الصوم، فيصبحون صائمين في يوم واحد، يجمعهم الخضوع لأمر الشريعة والظهور بسر الشعيرة، وتلوح عليهم جميعا سيما الإجلال وآثار الجلال، ثم يصبحون مفطرين في يوم واحد مستبشرين بنعمة الله عليهم، فيصلون ويتزاورون، ويشرك غنيهم فقيرهم فيما أتاه الله من فضل، ويطوون صحيفة ختامها عبادة، وينشرون منه صحيفة طغراؤها عيد وسعادة، فبهذا لا بغيره يجمعون بين امتثال أمر الله وبين تحقيق حكمة الله.

وبهذا لا بغيره تتجلى حقيقة الاتجاه الديني المستتبع بالطبيعة للاتحاد القومي.. وبهذا لا بغيره نغتبط بالتآخي ونجني ثمراته، ثم نورثه لأولادنا رطبا جنيا وسائغا هنيا..

أرأيتم كيف وازنت الشريعة صلاة الفذ بصلاة الجماعة، فجعلت الثانية أرجح وزنا وأحسن ثوابا، فلِم ذلك؟.. أرأيتم كيف راضتنا الشريعة بتسوية الصفوف في الصلاة وشددت في ذلك حتى ورد في الترغيب أن الله

---

52 ـ تفسير ابن باديس، ص: 177.

يباهي بصفوفنا الملائكة، وورد في الترهيب الوعيد بالمخالفة بين وجوهنا، فلم ذلك؟. ذلك كله لنرتاض على الاتحاد المثمر لكل خير حتى يصير لنا ملَكَة تصدر عنها الأعمال منظمة، وحتى نأمن شر التخبط والاضطراب.. إن الشريعة تريدنا على التوحيد حتى في قصودنا وتوجهاتنا وسائر تصرفاتنا»[53].

وفي تشريع التزوج ومنع التبتل، قصد الشارع ـ في نظر ابن باديس ـ إلى «تكثير سواد الأمة والمدافعين عن الملة، والقائمين بمصالح الدين والدنيا، وفي هذا ما فيه من الأجر والمثوبة، وفي التبتل مخالفة السنة، وانقطاع النسل، وضعف الأمة، وتعطيل المصالح، وخراب العمران، وكفى بهذا كله شرا وفسادا»[54].

3 ـ الترجيح بين المقاصد في حال تعارضها:

إن الفقه المقاصدي عند ابن باديس لم يتوقف عند إدراك كليات المقاصد وجزئياتها، وإنما امتد كذلك إلى إدراك رتب المصالح فيما بينها، يقول رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه»:

«هنالك المصلحة العامة، وهنالك المصلحة الخاصة. ومحال أن تُساوى هذه بتلك. انظر إلى الذكر الحكيم كيف عبر عن الأولى بالأمر الجامع، وفي هذا ما فيه من تفخيم. وعبر عن الثانية ببعض الشأن، وفي هذا ما فيه من التحقير والتقليل. وفي قرنها بالاستغفار تنبيه على ترجيح الأولى على الثانية، وأنها ما كانت تعتبر إلا على وجه الرخصة والاستغراق في الاهتمام. والتدبير للمصلحة العامة أحق وأولى».

لذلك، إذا حدث التعارض بين مصلحتين، في هذه الحالة يقرر ابن باديس أن علينا أن «نجعل المصلحة العامة غايتنا والمقدمة عندنا، حتى لا

53 ـ آثار ابن باديس، ج: 6، ص: 69 ـ 70.

54 ـ تفسير ابن باديس، ص: 297.

يكون - إن شاء الله - في مصالحنا الخاصة ما يصرفنا أو يشغلنا عنها، راجين من الله تعالى أن يعيننا على ما قصدنا، وأن يوفقنا إلى استعمال كل مصلحة خاصة لنا في مصلحة عامة لنا ولإخواننا»[55].

إن هذه النظرات الدقيقة التي يقدمها ابن باديس في باب فقه المقاصد الشرعية، لهي - في الواقع - نظرات فذة ونادرة، لا نكاد نقف على مثيلاتها إلا عند أفذاذ قليلين من العلماء. وهي تشكل إضافات ذات أهمية بالغة في ميدان البحث المقاصدي الذي لا يزال إلى اليوم متعثر الخطى متثاقل الحركة. وهي إضافات ينبغي استثمارها في البحوث المقاصدية، والاستمرار في البحث في تراث ابن باديس من أجل اكتشاف نظرات أخرى لا تزال بعيدة عن تناول الدارسين والباحثين.

ترى ما مدى تأثير هذا الفقه المقاصدي عند ابن باديس في عمله العلمي والثقافي والاجتماعي في واقع المجتمع الجزائري؟ وهل كان له دور في نجاح العمل الإصلاحي الذي قام به رحمه الله؟

هذا ما نحاول الإجابة عنه في الفقرة الموالية بحول الله عز وجل.

---

55 - تفسير ابن باديس، ص: 429 - 430.

ثالثا: أهداف التغيير عند ابن باديس ومدى توافقها مع المقاصد الشرعية

لقد تفتح وعي الإمام ابن باديس في بداية القرن العشرين على واقع مؤسف يعيشه المجتمع الجزائري، واقع أبرز ما يميزه، الاستغلال الفظيع الذي يتعرض له الجزائريون من قبل المعمرين الفرنسيين من جهة، ومختلف أساليب التجهيل التي تمارس على هؤلاء الجزائريين من قبل الإدارة الاستعمارية لكي تبقيهم على وضع من الغفلة والذهول التام عن حقوقهم ومصالحهم التي سطت عليها وأرادت أن تحافظ عليها وإلى الأبد.

وفي سبيل ذلك بذل الاستعمار كل غال ونفيس، وقد بين ابن باديس وهو يخاطب الشعب الجزائري، ما فعله فيه الاستعمار الفرنسي، فقال:

« .. حوربت فيكم العروبة حتى ظن أن قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها .... وحورب فيكم الإسلام حتى ظن أن قد طمست أمامكم معالمه وانتزعت منكم عقائده ومكارمه... وحورب فيكم العلم حتى ظن أن قد رضيتم بالجهالة، وأخلدتم للنذالة، ونسيتم كل علم إلا ما يشرح به لكم، أو ما يمزج بما هو أضر من الجهل عليكم... وحوربت فيكم الفضيلة، فسمتم الخسف، وديثتم بالصغار، حتى ظن أن قد زالت منكم المروءة والنجدة، وفارقتكم العزة والكرامة، فرئمتم الضيم ورضيتم الحيف، وأعطيتم بالمقادة...»[56].

ومعنى ذلك أن الجزائر كانت في وضع يهدد كيانها بالذوبان والفناء.

وحين قام ابن باديس رحمه الله مبتغيا مواجهة هذا الواقع الذي آل إليه أمر الشعب الجزائري، حدد من أول يوم الأهداف التي ينبغي عليه أن يسعى لتحقيقها ويعمل على توفيرها وصيانتها، وفي ضوء هذه الأهداف حدد - أيضا - الوسائل التي يمكن توظيفها لأجل تحقيقها.

فما هي هذه الأهداف، وما وجه علاقتها بالمقاصد الشرعية الذي رأينا فقه ابن باديس لها وتأكيده على أهميتها؟

56ـ البصائر، السنة الثانية، العدد 83، رجب 1356 هـ، سبتمبر 1937 م، بتصرف واختصار

الحق أن ابن باديس لم تكن له أهداف متعددة في عملية الإصلاح والتغيير التي قادها، وإنما كان له هدف واحد متعدد الفروع والوجوه، هذا الهدف، يتمثل في إنقاذ الشخصية الجزائرية مما سقطت فيه من ضياع وانهيار حضاري شامل على كافة المستويات. وهذا العمل لم يكن ليتم إلا بالعمل على إحياء ما تبقى من مقومات هذه الشخصية. وهذه المقومات في نظر ابن باديس هي: «الدين، واللغة، والوطن».

من هنا نجد أن «الاهتمام بالنضال من أجل الوطن والدين واللغة واضح في كل أعماله وخطبه ومقالاته، ثم إن الربط بين هذه العناصر المتكاملة واعتبارها شيئا واحدا ظاهر كذلك في أفكاره وأعماله وبرامجه، لأنه لا يتصور أن الإسلام مفصول عن اللغة العربية، وأن هذه الأخيرة مفصولة عن القرآن والإسلام، كما لا يتصور الجزائر باعتبارها وطنا عربيا إسلاميا مفصولة عن هذين العنصرين... فالدين واللغة والوطن عناصر لشيء واحد هو الشخصية الوطنية التي لا يمكن أن ينظر إليها من جانب واحد فقط... والشيء الذي كان يدور في ذهن الإمام حين أطلق شعاره المعروف: «الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا»، هو أن الشيء الذي يبذل في هذا المجال يجب أن يستهدف تحرير الشخصية الوطنية مما علق بها، وتخليصها من مظاهر الزيف والتشويه، وتحديد سماتها البارزة، وإعادة الاعتبار لها حتى تزدهر وتنمو، وتعود لها هيبتها وقدرتها على العطاء... ومن ثم، فالفصل بين عناصر الشخصية الوطنية، هو نوع من الفصل المصطنع بين مكونات الشيء الواحد الذي إذا سقط منه عنصر ذهبت حقيقته، وتلاشت ماهيته»[57].

انطلاقا من هذا الاعتبار، فنحن حين نحلل أهداف ابن باديس من عملية الإصلاح التي قادها، فإن ذلك لا يعني الفصل بينها واعتبارها أهدافا يستقل بعضها عن بعض، وإنما هي عناصر متعددة لهدف واحد، عمل الإمام على تحقيقه جملة واحدة وعلى صعيد واحد.

---

57 ـ محمد الصالح رمضان وعبد القادر فضيل: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص: 55.

أ - إحياء التدين والمحافظة على الشخصية الإسلامية للمجتمع الجزائري:

كان أول ما فكر فيه ابن باديس رحمه الله هو البحث عن أي السبل يمكن من خلالها الوصول إلى تحرير هذا الشعب من الذل والهوان الذي كان يرزأ تحت أنقاضه، فقاده تفكيره إلى أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الأمة مما حاق بها هي إحياء مقوماتها التي حاربها الاستعمار وحاول أن يميتها فيها، وهذه المقومات هي التي أكد عليها ابن باديس في قوله الآنف، وهي الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة.

«لقد كانت نظرة ابن باديس الناقدة النافذة تكشف له عما يكمن في الأمة الجزائرية من عناصر القوة والكمال، مما يؤهلها للحياة العزيزة الكريمة، فوضع منهاجه الإصلاحي العام القائم على الكتاب والسنة، فكان شعاره في دعوته إلى الحياة: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها». فالتغيير عنده إنما هو استجابة طبيعية من الأمة للحياة، متى أحيينا فيها قيم الإسلام ومبادئه السامية، فتغير ما بنفسها، ليغير الله ما بها، فالدين هو الأساس الأول لكل إصلاح وتغيير»[58].

فمن أول خطوة اختار ابن باديس الطريق الموافق لمقتضى مقاصد الشارع، فراعى حماية أم المقاصد الشرعية وأعلى كلياتها، ألا وهو حفظ الدين، قبل أن يفكر في تحقيق أي غاية أخرى، فلم يخض في السياسة من أول وهلة لأنه رأى أنها ليست الطريق الموصل إلى تحقيق ما يبتغي من نتائج، لذلك يقول رحمه الله في تعليل اختياره للمنهج الديني في الإصلاح:

«.. إننا اخترنا الخطة الدينية على غيرها، عن علم وبصيرة، وتمسكا بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا من النصح والإرشاد، وبث الخير والثبات على وجه واحد والسير في خط مستقيم. وما كنا لنجد هذا كله إلا فيما

58- من تقديم الشيخ عبد الرحمن شيبان للجزء الثاني من آثار ابن باديس (مجالس التذكير من حديث البشير النذير)، منشورات وزارة الشؤون الدينية، ط:1، دار البعث - قسنطينة، 1403هـ، 1983م.

تفرغنا له، من خدمة العلم والدين، وفي خدمتهما أعظم خدمة وأنفعها للإنسانية عامة»[59].

فهو قد اختار رحمه الله أن يدعو شعبه إلى أن يعود إلى دينه، إلى إسلامه الذي كرمه الله به.. هذا الإسلام الذي لم يكن ابن باديس يرى مستقبلا آخر للجزائر خارج دائرته، وهو وحده الذي تبنى عليه شخصية الشعب الجزائري، وهو يشكل مانعا حصينا لهذه الشخصية ضد كل تهديد داخلي أو خارجي[60].

ويحدد ابن باديس بدقة حقيقة الإسلام، فيقول:

«إن الإسلام الذي ندين به، هو دين الله الذي أرسل به جميع أنبيائه، وكمل هدايته وعمم الإصلاح البشري به على لسان خاتم رسله، وهو دين جامع لكل ما يحتاج إليه البشر، أفرادا وجماعات، لصلاح حالهم ومآلهم، فهو دين لتنوير العقول وتزكية النفوس وتصحيح العقائد وتقويم الأعمال، فيكمل الإنسانية وينظم الاجتماع، ويشيد العمران، ويقيم ميزان العدل وينصر الإحسان».

لذلك يدعو ابن باديس المسلمين الجزائريين إلى فقه دينهم هذا حق الفقه والعمل به حق العمل، لأن ما هم عليه من سلوك لا يتطابق في أكثر الأحيان مع حقيقة الإسلام الصحيح:

«ليعلم إخواننا المسلمون أن الإسلام دين له عقائد وأخلاق وأحكام، وأن على المسلم أن يعرف من ذلك ما لا يكون المسلم مسلما إلا به، وأن عليه أن يقوم بذلك في أهله وبنيه وبناته ومن في رعايته وكفالته.

وليعلموا أن من لم يعرف شيئا من ذلك ليس له من الإسلام إلا اسمه، وأنه لا يجني من ثمرات الإسلام ما يكون به عضوا حيا في جسد الإسلام، وأنه لا يرجى منه للمسلمين أدنى خير، وأنه ينقلب شرا على الإسلام والمسلمين

---

59 ـ الصراط السوي، السنة الأولى، العدد 15، قسنطينة، رمضان 1352 هـ، ديسمبر 1933 م.

60 ـ انظر: دكتور تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص226.

بعرض قليل يلوح له به»[61].

فالبعد المقاصدي ظاهر كل الظهور فيما اختاره ابن باديس من منهج في الإصلاح والتغيير، ويبدأ البعد المقاصدي في منهج التغيير عند ابن باديس من نظرته إلى الفرد باعتباره أساس الإصلاح والتغيير، وإصلاح الفرد يبدأ من إصلاح دخيلته، بتصحيح عقيدته وتقويم خلقه:

«إن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا، وتربية غيرنا، هو تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر، وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله».

«ولنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك وأخلاقنا من الفساد، وأعمالنا من المخالفات، ولنستشعر أخوة الإيمان التي تجعلنا كجسد واحد ولنشرع في ذلك، غير محتقرين لأنفسنا، ولا قانطين من رحمة ربنا، ولا مستقلين لما نزيله كل يوم من فسادنا، فبدوام السعي واستمراره، يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله.

وليكن دليلنا في ذلك وإمامنا كتاب ربنا، وسنة نبينا، وسيرة صالح سلفنا. ففي ذلك كله ما يعرفنا بالحق، ويبصرنا في العلم، ويفقهنا في الدين ويهدينا إلى الأخذ بأسباب القوة والعز والسيادة العادلة في الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الأخرى، وليس هذا على العاملين ببعيد، وما هو على الله بعزيز»[62].

والطريق إلى تحقيق ذلك إنما يمر عبر الاهتداء بهدي القرآن الكريم:

«لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه، والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه، إلا بالرجوع إلى القرآن، إلى علمه وهديه، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه، والتفقه فيه وفي السنة النبوية وشرحه وبيانه، والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد وصحة الفهم والاعتضاد بأنظار العلماء الراسخين، والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين، وهذا أمر قريب على من قربه

61 ـ آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج. 4، ص. 66ـ 67

62 ـ تفسير ابن باديس، ص: 164.

الله عليه، ميسر على من توكل على الله فيه»[63].

وإذا كان ابن باديس يعتبر الإسلام هو السبيل الوحيد للشعب الجزائري إلى المحافظة على كيانه، والصمود أمام مكائد أعدائه، فإن الاستعمار الفرنسي كان يدرك أيضا أن السبيل الوحيد إلى القضاء على شخصية هذا الشعب وتذويبه تماما في الكيان الفرنسي إنما يمر عبر هدم مكانة هذا الدين في نفسية هذا الشعب وحمله على ترك القيام بما يتطلبه من شعائر أو يوصي به من أخلاق.

فالاستعمار الفرنسي - كما يقول الإبراهيمي - «جاء إلى الجزائر يحمل السيف والصليب، ذلك للتمكن، وهذا للتمكين، فملك الأرض واستعبد الرقاب، وفرض الجزي وسخر العقول والأبدان، ولو وقف عند حدود الدنيويات لقلنا تلك طبيعة الاستعمار الجائع تدفعه الشهوات إلى اللذات فيجري إلى مداها ويقف تدفعه إلى الحيوانية فيلتقم ولا ينتقم، ولكنه كان استعمارا دينيا مسيحيا عاريا وقف للإسلام بالمرصاد من أول يوم، وانتهك حرماته من أول يوم، فابتز أمواله الموقوفة بالقهر، وتصرف في معابده بالتحويل والهدم، وتحكم في الباقي منها بالاحتكار والاستبداد، وتدخل في شعائره بالتضييق والتشريد. كل ذلك بروح مسيحية رومانية تشع بالحقد، وتفور بالانتقام. ولم يكتف بذلك حتى احتضن اليهودية، وحمى أهلها وأشركهم في السيادة ليؤلبها مع المسيحية على حرب الإسلام، ويجندها في الكتائب المغيرة عليه»[64].

وقد وقف ابن باديس وزملاؤه في جمعية العلماء لهذه السياسة بالمرصاد، بل أعلن صراحة - ودون مواربة - أنه ماض في التصدي لهذه السياسة والعمل على الحد من تأثيرها:

«إننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي - بعون الله - في تعليم ديننا ولغتنا، رغم كل ما يصيبنا،

63 - تفسير ابن باديس، ص. 134

64 - الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص. 55

ولن يصدنا عن ذلك شيء... وإننا على يقين من أن العاقبة - وإن طال البلاء - لنا، وأن النصر سيكون حليفنا، لأننا قد عرفنا إيمانا، وشاهدنا عيانا، أن الإسلام والعربية قضى الله بخلودهما ولو اجتمع الخصوم كلهم على محاربتهما».

ب - إحياء اللغة العربية وحفظ مكانتها في المجتمع الجزائري:

بمقدار ما كان تمسك ابن باديس رحمه الله وعمله على صبغ حياة الجزائريين بصبغة الإسلام، كان تمسكه ودفاعه عن اللغة العربية، لغة القرآن والإسلام، فهو يعتبر أنه «لا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد، إلا هذا الحبل المتين؛ اللغة العربية، لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المعزولة».

إن نظرة ابن باديس هذه إلى اللغة وموقفه الحريص على حمايتها والحفاظ عليها، ينطلقان أساسا من إدراكه لمدى خطورة اللغة كمقوم أساس ضمن مقومات الشخصية، وثابت من ثوابت الأمة التي لا يجوز التسامح فيها أو السماح بانتهاك حرمتها، وفي ذلك يقول:

«تختلف الشعوب بمقوماتها ومميزاتها، كما تختلف الأفراد، ولا بقاء لشعب إلا ببقاء مقوماته ومميزاته. كالشأن في الأفراد، فالجنسيات القومية هي مجموع تلك المقومات وتلك المميزات.. وهذه المقومات والمميزات هي: اللغة التي يعرف بها ويتأدب بآدابها، والعقيدة التي يبني حياته على أساسها، والذكريات التاريخية التي يعيش عليها وينظر لمستقبله من خلالها، والشعور المشترك بينه وبين من يشاركه هذه المقومات والمميزات».

انطلاقا من هذه النظرة النافذة إلى دور اللغة العربية ومكانتها في تاريخ المجتمع الجزائري ومستقبله، وفي سائر مقوماته الحضارية، قضى الشيخ رحمه الله الشطر الأكبر من حياته، وركز الجزء الأعظم من نشاطه في العمل الجاد لإحياء اللغة العربية في الجزائر ونشرها بين الجزائريين

الذين عمل الاستعمار على حرمانهم من تعلمها في مختلف المدارس والمراحل التعليمية.

والواقع أن الشيخ عبد الحميد ـ في مبادئه وأهدافه ـ لم يكن يفرق إطلاقا بين عمله للحفاظ على الإسلام وعمله للحفاظ على اللغة العربية، فهما يمثلان ـ بالنسبة إليه ـ وجهين لعملة واحدة، فلا يمكن الفصل بينهما[65]، حتى أنه تعهد في إحدى خطبه قائلا:

«أعاهدكم على أن أقضي بياضي على العربية والإسلام، كما قضيت سوادي عليهما، وإنها لواجبات، وإني سأقصر حياتي على الإسلام والقرآن، ولغة الإسلام والقرآن.. هذا عهدي لكم».

وقد طلب من تلاميذه أن يستمروا على دربه ويترسموا خطاه في هذا المجال، فقال لهم: «أطلب منكم شيئا واحدا، وهو أن تموتوا على الإسلام والقرآن، ولغة الإسلام والقرآن».

وما ذلك كله إلا لأن الرجل كان يدرك أهمية اللغة العربية في نطاق الشخصية الوطنية الإسلامية أساسا، إذ لا يتم الحفاظ على الإسلام إلا بالحفاظ على اللغة العربية التي هي السبيل إلى فهمه.

ج ـ تحرير الشعب الجزائري واستقلاله عن فرنسا:

يعتبر ابن باديس أن «الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا»، وأن الاستعمار الخبيث الذي ناء بكلكله الثقيل على أمم كثيرة إنما هو وضع غير سوي، بل هو وضع شاذ.

لذلك لم يكن عجيبا أن يطمح الإمام إلى تحرر الجزائر واستقلالها من ربقة الاستعمار الفرنسي الغاشم، «فقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم والمنعة والحضارة، ولسنا من الذين يَدَّعون علم الغيب مع الله ويقولون أن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد، فكما تقلبت الجزائر مع التاريخ

65ـ انظر دراستنا المطولة عن: (ابن باديس.. هل كان ظلاميا؟) في جريدة (رسالة الأطلس) الصادرة بباتنة، العدد 05، الإثنين 19 أفريل 1993م، ص. 16 ـ 17.

فمن الممكن أنها تزداد تقلبا مع التاريخ، وليس من العسير، بل إنه من الممكن أن يأتي يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادي والأدبي وتتغير في السياسة الاستعمارية وتصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالا واسعا تعتمد عليه فرنسا اعتماد الحر على الحر».

ولقد عمل ابن باديس على تحقيق هذا الهدف بما أتيح له من وسائل، وعلى حسب درجة الوعي السائد في أوساط الشعب الجزائري في ذلك الحين، فقد كان «يتخذ من دروس التفسير والحديث وسيلة لشرح أفكاره وآرائه في بعث روح اليقظة والنهضة في نفوس الجزائريين، ورسم معالم الطريق أمام بعث هذه اليقظة والنهضة، وكان دائم الاستخلاص للعبرة من دروسه في التفسير والحديث والحضارة الإسلامية لتنبيه الجزائريين إلى الحالة السيئة التي وصلت إليها أوضاعهم العامة تحت السيطرة الاستعمارية، وضرورة تكاتف جهود جميع الجزائريين لتغييرها، كما كان دائم الانتقاد لتصرفات الحكام الاستعماريين في الجزائر، والدفاع عن حقوق الجزائريين المهضومة التي يحاول هؤلاء الحكام تجاهلها ورفض الاستجابة لها»[66].

على هذا المنهج القائم على الإيمان العميق بالاستقلال التام للكيان الجزائري بإسلامه ولغته ووطنه، حارب ابن باديس - وبضراوة - فكرة الاندماج التي كان ينادي بها بعض الجزائريين، فقد ظهر من بين الأحزاب السياسية في الجزائر من حاولوا إقناع الجزائريين بمحاولة الحصول على الحقوق الفرنسية للجزائريين عن طريق الإدماج في فرنسا، ويتم ذلك بالتنازل عن المبادئ، مع المحافظة على قانون الأحوال الشخصية الإسلامي.. بل لقد تطرف بعضهم فأصبحوا ينادون بالتجنيس الكامل للجزائريين بحيث يصبحون فرنسيين في كل شيء. لذلك جاء إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كرد فعل على سياسة التنصير والفرنسة التي عملت فرنسا على فرضها على الجزائر، كي تسلخها من هويتها وانتمائها، وبذلت الجمعية -

---

66 - دكتور تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ص. 253.

وعلى رأسها ابن باديس - جهدها الأكبر لإحياء اللغة العربية ونشرها على نطاق واسع، ومقاومة نشاط رجال التبشير، ثم العمل بكل وسيلة على إحباط سياسة الاندماج والتجنيس التي كان يدعو إليها أولئك المحسوبون على الجزائريين.. وفي هذا الصدد قرر ابن باديس «أن كل محاولة لحمل الجزائريين على ترك دينهم أو تاريخهم أو شيء من مقوماتهم، فهي محاولة فاشلة مقضي عليها بالخيبة».. كما أكد «أن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها، لا تريد أن تندمج».

من هذا المنطلق حارب ابن باديس - ومعه جمعية العلماء - سياسة الاندماج ودعاة التجنيس حربا لا هوادة فيها، وأصدرت الجمعية فتوى بتكفير كل مسلم جزائري يتنازل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي من أجل الاندماج أو التجنس بالجنسية الفرنسية.. وبذلك لاقت تلك الدعوة الفشل الذريع وانصرف عنها الناس[67].

وكما حارب ابن باديس رحمه الله الاستعمار الفرنسي ودعاة الاندماج، حارب كذلك رجال الطرق الصوفية في المجتمع الجزائري، بل لقد بدأ بهم قبل أي عدو آخر. وقد صور الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله نظرته هو وابن باديس لهذه الفئة وسبب مواجهتهما لها، فقال:

«كان من نتائج الدراسات المتكررة للمجتمع الجزائري بيني وبين ابن باديس - منذ اجتماعنا في المدينة المنورة - أن البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين آت من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح: من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويتعرقان لحمه، ويفسدان عليه دينه ودنياه:

١ - استعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي، يعتمد على الحديد والنار.

67 - انظر دراستنا - المذكورة سابقا - المنشورة في جريدة (رسالة الأطلس)، العدد 05، ص. 17

٢ ـ استعمار روحاني يمثله مشايخ الطرق المؤثرون في الشعب والمتغلغلون في جميع أوساطه، المتجرون باسم الدين، المتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية، وقد طال أمد هذا الاستعمار الأخير وثقلت وطأته على الشعب حتى أصبح يتألم ولا يبوح بالشكوى أو الانتقاد، خوفا من الله بزعمه.

الاستعماران متعاضدان يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته، ومظهرهما معا تجهيل الأمة لئلا تفيق بالعلم فتسعى في الانفلات، وتفقيرها لئلا تسعى بالمال على الثورة. فكان من سداد الرأي وإحكام التدبير بيني وبين ابن باديس أن تبدأ الجمعية بمحاربة هذا الاستعمار الثاني لأنه أهون، وكذلك فعلنا»[68].

لذلك ـ إذن ـ أعلن ابن باديس الحرب على رجال الطرق الصوفية، فعمل من جهة على فضح دسائسهم وكشف مؤامراتهم وتعاونهم مع الاستعمار.

وعمل من جهة أخرى على تحرير العقل الجزائري من الأوهام التي كبلته وجعلته يؤمن بالخرافات والأساطير ويقصد المشعوذين والطرقيين، وقد قام بذلك بواسطة نشر التربية الإسلامية الصحيحة، ونشر العلم والمعرفة بين عامة المسلمين، ومحاربة الخرافات والجمود وغرس الإيمان بالفكرة الإصلاحية السلفية في نفوس عامة الجزائريين، حتى تصبح عقيدة راسخة في قلوبهم..

ولقد شن ابن باديس حملة عنيفة على هؤلاء، ورأى أن المعركة ضدهم مقدمة حتى على المعركة مع الاستعمار. حتى بلغ من عنف هذه الحملة التي قادها ابن باديس على رجال الطرق الصوفية والتي قوضت أركانهم وحررت عقول الجزائريين ومعتقداتهم من الشرك والضلال أن تآمر بعضهم على قتله لكي يستريحوا من حملته الضارية عليهم. وقد كان من لطف الله به وبالشعب الجزائري أن أنقذه من محاولة الاغتيال التي دبروها له ذات ليلة في أحد

---

68 ـ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عدد 21، نقلا عن: الشيخ عبد الحميد بن باديس... للدكتور تركي رابح، مرجع سابق، ص. 236.

أزقة مدينة قسنطينة[69].

ولقد كان ابن باديس، وهو يكافح جهود الاستعمار ورجال الطرق الصوفية الرامية إلى الإبقاء على حالة الخنوع والاستكانة في نفوس الجزائريين، كان يعمل من جهة أخرى على بث الوعي بأن الحرية والاستقلال لا ينالان إلا بالقوة كما أخذا بالقوة. حيث كان يقول:

«قلب صفحات التاريخ العالمي، وانظر ذلك السجل الأمين، هل تجد أمة غلبت على أمرها ونكبت بالاحتلال ورزئت في الاستقلال ثم نالت حريتها منحة من الغاصب، وتنازلا من المستبد، ومنة من المستعبد؟ اللهم كلا، فما عهدنا الحرية تعطى، إنما عهدنا الحرية تؤخذ، وما عهدنا الاستقلال يمنح ويوهب، وإنما عهدنا الاستقلال ينال بالجهاد والاستماتة والتضحية»[70].

د ـ المحافظة على وحدة الشعب الجزائري:

لقد رأى الإمام عبد الحميد ابن باديس رحمه الله، وهو يصبو إلى تحقيق التحرر والاستقلال للجزائر والجزائريين، أن السبيل إلى ذلك إنما تبدأ أولا من المحافظة على الوحدة الوطنية للشعب الجزائري، والتي دأب الاستعمار الفرنسي على دك المسامير والأوتاد في كيانها، بزرع أسباب انهيارها والترويج لشعارات مشبوهة هدفها بث الفرقة والانقسام بين الجزائريين.

لذلك سعى ـ رحمه الله ـ إلى توحيد الشعب الجزائري كله وراء هدف واضح ومحدد على أساس من رابطة الإسلام والعروبة. وقد تمكن الإمام أن يوحد صفوف الشعب ويكتل قواه الحية من أجل المحافظة على وحدته الوطنية من ناحية، وإفساد أهداف الاستعمار في بذر بذور الخلاف والشقاق بين الجزائريين من ناحية أخرى، وقد حقق هذا الهدف عن طريق التربية الإسلامية التي نشرها في طول الجزائر وعرضها، وهي التربية التي ظلت

69 ـ انظر: د/ تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ص. 274 ـ 275

70 ـ الشهاب، ج: 5، مج: 6، ص: 176.

فرنسا تحاربها لأنها كانت تمثل الخطر الأكبر على مستقبلها في الجزائر[71].

وقد وقف ابن باديس سدا منيعا أمام أولئك الذين حاولوا بث التفرقة بين الجزائريين.

وستتكفل الدراسة الموالية، بتفصيل الحديث في موضوع الجهود التي قام بها الإمام ابن باديس في سبيل الحفاظ على الوحدة الوطنية.

تلك ـ إذن ـ هي الأهداف التي عمل ابن باديس رحمه الله على تحقيقها، وسخر حياته كلها لأجل بلوغها، وهي أهداف تتوافق تمام التوافق مع ما فقهه من مقاصد الشارع وما أدركه من أسرار شريعته السامية، وهي أهداف تمثل صميم العمل الشرعي الإسلامي المبتغي خدمة الدين والحفاظ عليه بالحفاظ على سائر المقومات الأخرى للشعب الجزائري.

رابعا: أسس منهج التغيير عند ابن باديس وعلاقتها بفقه المقاصد

إننا حين ندرس منهج التغيير عند ابن باديس دراسة فاحصة متعمقة، سندرك لا محالة أن الرجل لم يكن يصدر في عمله عن عاطفة جارفة ولا عن تصور مغشوش للواقع والأحداث، كما لم يجر فيما جرى عليه من أعمال وأقوال على عفوية غير محسوبة، وإنما كان يجري على دراسة فاحصة وتأمل مسبق للوسائل والنتائج التي يمكن أن تتمخض عن أي حركة قد تصدر عنه أو عن جمعيته، وذلك في الحقيقة صميم المنهج المقاصدي الذي يراعي تحقيق الغايات المطلوبة بواسطة الوسائل الأقدر على التحقيق، بأكبر قدر ممكن من إمكانيات النجاح، وبأقل قدر ممكن من إمكانيات الفشل.

ويمكن أن ندرك من منهج ابن باديس في التغيير، القواعد الآتية:

71 ـ انظر: د/ تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس، مرجع سابق، ص. 270.

أ ـ التزام منهج الأنبياء في التغيير:

يمثل الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم صفوة الإنسانية، كرمهم الله عز وجل واصطفاهم بإرسالهم إلى خلقه، وتحميلهم أمانة التربية والتوجيه والهداية والإرشاد. وقد انصب عملهم في حياة الإنسان على جانب التربية والتزكية ومحاربة الرذائل ونشر الفضائل.

فوظيفة الرسل ليست هي الإرشاد العقلي إلى حقائق الحياة فحسب، بل إن تربية الأصحاب والأتباع على هذه المبادئ من أهم ما جاؤوا به. وهذه التربية التي تولاها الأنبياء تقوم على إحداث تغيير نفساني عميق في كيان الإنسان[72]. ولذلك كانت من أشق المهام التي قام الرسل بأدائها، لأن النفوس لا تستقيم على المنهج الصحيح بمجرد دعوتها إليه! حتى لو عرفت وآمنت بأنه هو الحق، وأنه هو الأولى بالاتباع! ذلك أن في النفوس نزعات دائمة التطلع إلى متاع الحياة الدنيا ولذائذها، ويحتاج ضبطها داخل حدود الله إلى جهد ليس بالقليل، وإلى تذكر دائم بالله وخشية منه، وذلك ما لا يمكن تركيزه في نفس الإنسان بسهولة[73].

إن الأنبياء ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ هم الذين منحوا الأجيال البشرية ـ بفضل هذه التربية ـ ثروة لا تفنى، تلك هي قوة كراهة الشر وحب الخير، والتمرد على قوى الشر ونوازعه والاندفاع إلى الخير والجهاد في سبيله، هذه القوة التي كانت العامل الأساس والأكبر في كل ما قام به البشر من مآثر وبطولات عبر تاريخ الإنسانية الطويل[74].

والحق أنه ما خلدت رسالات النبيين وكونت حولها جماهير المؤمنين إلا لأن النفس الإنسانية كانت موضوع عملها ومحور نشاطها، لقد خلطوا مبادئهم بطوايا النفس، فأصبحت هذه المبادئ قوة تهيمن على وساوس

---

72 ـ محمد الغزالي: عقيدة المسلم، ص. 185 ـ 186

73 ـ محمد قطب: كتاب منهج علم التوحيد، ج. 3، ص. 29 ـ 30

74 ـ أبو الحسن علي الحسني الندوي: النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، ص. 29 ـ 30. انظر أيضا: محمد قطب: كتاب منهج علم التوحيد، ج. 3، ص. 31 ـ 32.

الطبيعة البشرية وتتحكم في اتجاهاتها[75].

وذلك موضع القدوة في حياتهم وقصصهم عليهم صلوات الله وسلامه، لأن هداية الإنسان وإرشاده والاقتراب به إلى الله عز وجل هو رأس المقاصد التي جاء الرسل والأنبياء جميعا لتحقيقها وبناء حياة الإنسان عليها. يقول ابن باديس:

«الأنبياء والمرسلون أكمل النوع الإنساني، وهم المثل الأعلى في كماله. وقد كان أصل كمالهم بطهر أرواحهم وكمالها. فاقبل على روحك بالتزكية والتطهير، والترقية والتكميل. ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاقتداء بهم، والاهتداء بهديهم. وقد قال الله تعالى لنبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام: «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده»، فاقرأ ما قصه القرآن العظيم من أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم وسيرهم، وتفقه فيه، وتمسك به، تكن - إن شاء الله تعالى - من الكاملين»[76].

ولا يكتفي ابن باديس بالإرشاد إلى ضرورة اتباع منهج الأنبياء بالنسبة لكل فرد، وإنما يعتبر أن اتباع منهج الأنبياء هو السلوك الذي ينبغي أن يجري عليه كل صاحب حركة إصلاحية أو تغييرية في أي مجتمع من المجتمعات، وإلا فإن حركته تلك لن تؤتي أكلها، ولن تحقق المقاصد المرجوة منها.. يقول رحمه الله:

«حق على حزب القرآن الداعين به، والداعين إليه، أن يقتدوا بالأنبياء والمرسلين في الصبر على الدعوة، والمضي فيها، والثبات عليها، وأن يداووا أنفسهم عند ألمها واضطرابها بالتأسي بأولئك السادة الأخيار»[77].

والناظر في حياة ابن باديس، والمتتبع لأطوار عمله الإصلاحي التغييري في واقع المجتمع الجزائري، يلاحظ جيدا، كيف أن ابن باديس لا يكتفي بأن يقول هذا الكلام هكذا مجردا، وإنما يمارس مضمونه فعلا

75 - محمد الغزالي: خلق المسلم، ص. 21 - 22.

76 - تفسير ابن باديس، ص:219.

77 - م. ن، ص: 236.

وسلوكا في واقع حركته وجهوده الإصلاحية. وذلك ما أتاح له أن يحقق الكثير من أسباب النجاح والاستجابة لحركته من قبل أفراد المجتمع الجزائري الذين رأوا فيها سبيل خلاصهم ومناط عزهم.

ب ـ التزام الكتاب والسنة في الوسائل والأهداف:

وتكميلا للتأسي بمنهج الأنبياء في الدعوة والإصلاح، يمضي ابن باديس إلى التأكيد على أن السبيل إلى حسن التأسي بالأنبياء جميعا، وبالنبي محمد عليه الصلاة والسلام خاصة، إنما يمر كل ذلك عبر فقه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، واستثمار ما يتضمنانه من توجيهات توجه حركة الإصلاح وترسم لها منهج الدعوة والتغيير.

يؤكد ابن باديس أن «القرآن هو شفاء للاجتماع البشري كما هو شفاء لأفراده، فقد شرع من أصول العدل، وقواعد العمران، ونظم التعامل، وسياسة الناس، ما فيه العلاج الكافي، والدواء الشافي لأمراض المجتمع الإنساني من جميع أمراضه وعلله.

شفاء العقائد والأخلاق أساس الأعمال والمجتمع. هذه الثلاثة لا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجتها، وبيان ما هو شفاء لها، ولا شفاء لها إلا بالقرآن، والبيان النبوي راجع إلى القرآن. ومن طلب شفاءها في غير القرآن فإنه لا يزيدها إلا مرضا»[78].

وعلى هذا الأساس، يرى ابن باديس أنه ينبغي علينا أن نستفيد من منهج القرآن في الإصلاح والتغيير الاجتماعي، هذا المنهج الذي يعتمد التدرج والانتقال بالناس من حال إلى حال ومخاطبتهم بحسب الظروف والوقائع والأحوال. يقول معلقا على تدرج الشارع في تحريم الخمر:

«انظر إلى هذه الحكمة في هذا الترتيل، كيف كانت تنزل آياته على حسب الوقائع. أليس في هذا قدوة صالحة لأئمة الجُمَع وخطبائها في توخيهم بخطبهم الوقائع النازلة، وتطبيقهم خطبهم على مقتضى الحال؟ بلى

78 ـ تفسير ابن باديس، ص: 187 ـ 188.

والله، بلى والله!.. ولقد كانت الخطب النبوية والخطب السلفية كلها على هذا المنوال تشتمل مع الوعظ والتذكير على ما يقتضيه الحال. وأما هذه الخطب المحفوظة المتلوة على الأحقاب والأجيال، فما هي إلا مظهر من مظاهر قصورنا وجمودنا»[79].

ويرى ابن باديس أيضا ضرورة متابعة أسلوب القرآن في الحجاج والمناظرة ومخاطبة المدعوين: «لنقتد بالقرآن فيما نأتي به من كلام في مقام الحجاج أو مقام الإرشاد. فلنتوخ دائما الحق الثابت بالبرهان أو بالعيان، ولنفسره أحسن التفسير ولنشرحه أكمل الشرح، ولنقربه إلى الأذهان غاية التقريب. وهذا يستدعي صحة الإدراك وجودة الفهم ومتانة العلم، لتصور الحق ومعرفته، ويستدعي حسن البيان وعلم اللسان لتصوير الحق وتجليته والدفاع عنه»[80].

وكما يوجب ابن باديس اقتفاء منهج القرآن، يوجب كذلك؛ الاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام في سنته، وفي هذا يقول:

«لما كان هو عليه الصلاة والسلام قدوتنا، فنحن مخاطبون بأن نكون مثله في عموم رحمته وشفقته وعدله وبره وإحسانه؛ نفعل الخير عاما كما تعم خيرات الله تعالى العباد، نفعله لأنه خير تستطعم لذته، غير منتظرين جزاءه إلا من الله، لأن من انتظر الجزاء من الناس، وفي هذه الحياة، لابد أن يميل بخيره عن جهة إلى جهة، وربما يكون في ميله قد أخطأ وجه الصواب، ولابد أيضا أن ييأس فيفتر في العمل، أو ينقطع عنه عندما يرى عدم المكافأة من الناس، وعدم ظهور أثر خيره في الحياة وأبناء الحياة»[81].

ولقد جرى رحمه الله في عمله الإصلاحي داخل المجتمع الجزائري على هذا الذي ينصح به ويوجه إليه. إذ كان منهجه للبعث والإحياء والتغيير والإصلاح، ينطلق من القرآن الكريم، والسنة النبوية، مستلهما قوله تعالى:

---

79 ـ تفسير ابن باديس، ص: 242.

80 ـ م. ن، ص: 245.

81 ـ م. ن، ص: 77.

«هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين». وذلك ما يظهر في توجهه إلى التربية والتعليم لرفع المعاناة وتحرير الضمير، وإعادة بناء الرسالة القرآنية في نفوس الشعب، وإشاعة اللغة العربية في لسانه وحياته الثقافية، وإحداث التفاعل مع القرآن من جديد، بحيث تزال الحواجز اللفظية الجدلية والنفسية بين القرآن والإنسان، فكانت حلقاته ودروسه القرآنية والحديثية في المساجد، إذ أحيا بهذه المجالس معاني القرآن، وبين أهمية المجاهدة به في إحياء النفوس بعد مواتها[82].

ب ـ مراعاة الموازنة والترتيب بين الأولويات:

لم يحد ابن باديس في منهجه الإصلاحي عما يوجبه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من ضرورة العناية بالإنسان باعتباره اللبنة الأساسية في أي عملية تغيير أو إصلاح، إذ دون العناية بتغيير ما بداخل الإنسان، لا يمكن إحداث أي تغيير في حياته الخارجية.

ونحن حين ندرس حركة الإمام عبد الحميد بن باديس دراسة فاحصة متأنية، يتبين لنا أن «الإنسان في فلسفته هو محور كل تغيير، وأساس كل نهضة، فالجهود الإصلاحية التي تبذل من أجل النهوض بالأمة وتطوير ظروف الحياة المادية والمعنوية هدفها الإنسان وأداتها الإنسان، ولكن الإنسان الذي يستطيع الإسهام في التغيير المنشود والنهضة المتوخاة هو الإنسان الذي بلغ درجة من الكمال البشري وحقق إنسانيته، وتحقق إنسانية الإنسان بالعناية بروحه وجسده وبتربية فكره ووجدانه، وتزكية نفسه، وتهذيب غرائزه، وإصلاح عقيدته، وتقوية إرادته، وتوجيه أعماله، وجعله يتطلع

82ـ عمر عبيد حسنة، في تقديمه لكتاب: عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، لمصطفى محمد حميداتو. كتاب الأمة، رقم: 57، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ قطر، المحرم 1418 هـ، ص: 28.

بالتفكير المتجدد في مسائل الدنيا والآخرة»[83].

وفي هذا المنظور، فقد هدى ابن باديسَ تفكيرُه إلى ضرورة علاج أمراض الإنسان الفرد أولا ثم الدفع به بعد ذلك إلى تغيير أوضاعه. ولقد أدرك أن «الأمراض الإنسانية قسمان:

أمراض أرواح وأمراض أبدان، وكلاهما أنواع.

وأمراض الأرواح المقصودة بالذات هنا ترجع إلى نوعين: مرض العقول ومرض النفوس.

فالأول بجمود النظر وفساد الإدراك وتقليد الآباء، واعتقاد الباطل، والشك في الحق.

والثاني بفساد الأخلاق، وانحطاط الصفات.

أما الأعمال فهي تابعة لهما فتصلح بصلاحهما وتفسد بفسادهما»[84].

لذلك كان اهتمامه منصبا على تغيير ما بالنفوس قبل تغيير ما بالواقع. ومن هنا كان تركيزه على العمل التربوي قبل غيره من ميادين التغيير والإصلاح.

فالعمل التربوي يمثل في منهج ابن باديس «الأساس الذي يقوم عليه كل تغيير، كما تحتل التربية ضمن مشروع الحركة الإصلاحية التي قادها ووجهها مكانة بارزة، فالتربية عنده هي حجر الأساس في كل عمل بنائي، لذلك أعطاها كل جهده ووقته، وجند لها رفاقه وتلاميذه من العلماء الذين شدوا أزره، وساعدوه في تنفيذ الخطة التي صممها، واستنهض معهم - من أجل توسيع المشروع التعليمي - همة الشعب ونخوته، ليقوم بإنشاء المدارس وتمويل المشاريع التعليمية، وليلتف حول جمعية العلماء ويسند جهدها...

وهذا الفكر التربوي الذي نجده عند ابن باديس نابع من الروح الإسلامية التي تعيش في فكره وسلوكه ووجدانه، والتي كان يستلهمها في كل عمل من أعماله، وقائم على التصور الواقعي لحركة التغيير التي ينشدها

83 - محمد الصالح رمضان وعبد القادر فضيل: إمام الجزائر، ص: 180.

84 - تفسير ابن باديس، ص: 187.

المجتمع، ومستوحى من الأحوال السياسية والنفسية والاجتماعية التي كانت هدف التغيير وموضوعه»[85].

وقد كان تركيز ابن باديس في الجانب التربوي منصبا أولا على تطهير الفكر والوجدان من كل الشبهات والأدران، وفي ذلك يقول:

«إن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا، هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق. فالباطن أساس الظاهر، وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله»[86].

لقد حمل ابن باديس رسالة هي رسالة الأنبياء، وتمثلت في إخراج المجتمع الجزائري العربي المسلم من ظلمات الجهالة والتخلف والاحتلال، إلى نور العلم والحرية والتقدم.

وقد سلك في ذلك مسلكا يشهد بحكمته ورجاحة عقله وسداد فكرته، منهج كفيل بتحقيق تلك الأهداف، المنهج الذي يقوم على: الحكمة والمرونة والتدرج واستعمال اللباقة وأنجع الأساليب الواجب اتخاذها، والمراحل اللازم اجتيازها.

فالرجل لم يكن يسير سيرا أهوج لا يعتمد على أساس علمي أو منهجي، وإنما كان يحسب لكل خطوة حسابها، لأنه يدرك ثقل الحمل الذي كان يحمله، ولقد اضطرته الظروف في بعض الأحيان إلى أن يمارس نوعا من المهادنة للسلطات الاستعمارية ويداريها بإظهار التوقير والاحترام لرجالها، ولكنه كان يفعل ذلك لأنه رأى أن المرحلة كانت تقتضيه، حتى لا تموت دعوته في مهدها ويقضى على حركته الإصلاحية قبل أن تؤتي أكلها. لكن هذا لا يعني أن الرجل كان يعطي الدنية في دينه، لا بل إنه كان كثيرا ما يثور في وجه بعض الممارسات الاستعمارية ويعلن عليها الغضب والثورة، ولكن دائما بحكمة وروية وتغليب لمصلحة الدعوة.

وهنا يتبين لنا الفقه المقاصدي العميق الذي تحلى به ابن باديس

85ـ محمد الصالح رمضان وعبد القادر فضيل: إمام الجزائر، ص: 155 ـ 156.

86ـ تفسير ابن باديس، ص: 196.

ووظفه في عملية الإصلاح والتغيير التي قادها في وسط المجتمع الجزائري، وعدم إدراك بعض الباحثين لهذه الحقيقة، أي حقيقة الموازنة بين المصالح والمفاسد وترجيح أحقها بالترجيح من الناحية الشرعية، هو الذي جعلهم يتوجهون بالنقد إلى الرجل في بعض مواقفه السياسية المهادنة، وخاصة في بداية دعوته الإصلاحية.

إن الرجل كان يدرك أنه لو دفع بالشعب من أول يوم إلى مواجهة الاستعمار الفرنسي بالعنف والتمرد، لكان مصير حركته هو القمع والاضطهاد من جهة، ولتنكر له الكثير من المدعوين أنفسهم لأن الأوضاع لم تكن مهيأة للثورة والتمرد على الاستعمار الفرنسي.

لأجل ذلك كان الرجل «يتوق إلى تكوين جيل من المصلحين يحملون الفكرة الإصلاحية ويستوعبون الأهداف التي يتوخاها، جيل قادر على تهيئة الظروف المواتية لمواجهة الاستعمار ومقاومته. لذلك لم يكن ابن باديس في بداية الأمر يظهر بمظهر الرجل السياسي الذي يعلن أفكاره للناس ويدعو علنا إلى مقاومة العدو، لأنه اختار طريقة أخرى ارتضاها لنفسه وفضلها على غيرها، عن علم وبصيرة، ألا وهي طريق النصح والإرشاد، والتربية والتهذيب، الذي رأى أنه الباب الذي يجب أن ندخل منه إلى السياسة، إذ هو المدخل الحقيقي لتصحيح المفاهيم وبث الوعي والتنبيه إلى الخطر المحدق بالمجتمع، بطريقة ذكية توصل الفكرة إلى هدفها، دون أن ينتبه الأعداء إلى حقيقتها، ومن هنا فلا يستطيع العدو أن يسجل عليه شيئا يخالف القوانين السائدة، ويتعارض مع أهداف الجمعية المعلنة»[87].

والدليل على أن الرجل كان يراعي ترتيب الأولويات، ويوازن بين المصالح والمفاسد، ويأخذ بعين الاعتبار الواقع السائد، أنه «في السنوات الأخيرة، لم يبق في المسلك الذي رآه في البداية ملائما، إذ لم يعد يكتفي بالتلميح أو الإشارات الخفية، أو بالأفكار التي تقدم مغلفة داخل أطر دينية أو أخلاقية أو اجتماعية، بعد أن تمادى الحكام الاستعماريون في ظلمهم

87 ـ محمد الصالح رمضان وعبد القادر فضيل: إمام الجزائر، ص: 137.

وتعنتهم ومعاملاتهم المجحفة... فأصبح يجاهر بالحقيقة السياسية، غير أنها مجاهرة معتدلة، تشتد حينا وتلين حينا آخر، حسب الأوضاع، وبكيفية متدرجة يخطو فيها الإمام المصلح خطوة بعد أخرى، كما يحاول أن يجعل السلطة الفرنسية تقتنع بأنها ظالمة، وبأن حالة الظلم هذه لا تدوم، فسيأتي اليوم الذي ينفجر في الوضع، كان يأمل بأن يأتي يوم تتخلى فيه فرنسا عن ظلمها وعجرفتها وتترك البلاد لأهلها»[88].

والخلاصة: لقد قرر ابن باديس أن يعمل على النهوض بالذات حتى لا تذوب في الكيان الاستعماري الدخيل، ولم يَرَ ضيرا بعد ذلك في أن تتكيف هذه الذات مع التقلبات التي تقتضيها المسيرة وسط الزوابع والأعاصير والعراقيل من جهات كثيرة وبأدوات شتى[89].

ج ـ التزام المشاورة والعمل الجماعي المنظم:

يؤمن ابن باديس بالنظام، ولا يعترف بالعفوية في السلوكات والأعمال. ويعتبر أن أي عمل من الأعمال الموجهة لخدمة الأمة، لا يمكن أن يحقق نتيجة من النتائج إذا كانت الحركة فيها فردية والقرارات الموجِّهة لها فردية أيضا.

ويستخلص من قصة سليمان في سورة النمل العبرة والعظة في هذا الإطار، فيقول في تفسير قوله تعالى: «وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون» «النمل/ ١٧»:

«تعرض علينا الآية هذه الصورة التاريخية الواقعة، تعليما لنا وتربية على الجندية المضبوطة المنظمة. ولا شك أن الخلفاء الأولين قد عملوا على ذلك في تنظيم جيوشهم، وأن مثل هذه الآية كان لها الأثر البليغ السريع في نفوس العرب لما أسلموا، فسرعان ما تحولوا إلى جنود منظمة مما لم يكن

88 ـ محمد الصالح رمضان وعبد القادر فضيل: إمام الجزائر، ص: 138.

89 ـ انظر: تقديم الشيخ عبد الرحمن شيبان للجزء الخامس من آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، دار البعث ـ قسنطينة، ص: 9.

معروفا عندهم في الجاهلية. وبقيت الآية على الدهر مذكرة لنا بأن النظام أساس كل مجتمع واجتماع، وأن القوة والكثرة وحدهما لا تغنيان بدون نظام، وأنّ النظام لا بد له من رجال أكفاء يقومون به ويحملون الجموع عليه، وأولئك هم الوازعون»[90].

وقد استوحى ابن باديس هذا المعنى الذي فهمه من الآية في عمله الإصلاحي الذي أداه من خلال تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

صحيح أن ابن باديس كان قد انطلق في دعوته بصفة فردية، إذ اتخذ من الجامع الأخضر معهدا لنشاطه العلمي والتعليمي التربوي. لكن مع ذلك فقد كان يؤمن بوجوب العمل الجماعي، وإنشاء حركة منظمة تتولى انتشال هذه الأمة من وهدة الجهل والتنصير والفرنسة.

وقد تجلى ذلك فيما بعد حين اتفق مع زميله الشيخ محمد البشير الإبراهيمي على إنشاء جمعية العلماء، والتي مهد لها بتأسيس جمعية التربية والتعليم الإسلامية[91].

ولم يكن ابن باديس يؤمن بالعمل الجماعي في إطار جمعية العلماء وحدها، وإنما كان يدرك أن نجاح عمل الجمعية لا يمكن أن يتم إلا إذا التفت الأمة كلُّها حولَها وشعر كلُّ فرد فيها أن أي عمل تقوم به الجمعية هو عمل يتعلق به هو أيضا كما يتعلق بغيره. ويثير ابن باديس هذا الشعور في نفوس الجزائريين، فيقول: «كل واحد في قومه أو في جماعته هو المسؤول عنهم من ناحيته، مما يقوم به من عمل حسب كفاءته واستطاعته، فعليه أن يحفظ مركزه ولا يدع الخطر يدخل ولا الخلل يقع من جهته، فإنه إذا قصر في ذلك وترك مكانه فتح ثغرة الفساد على قومه وجماعته، وأوجد السبيل لتسرب الهلاك إليهم، وزوالُ حجر صغير من السد المقام لصد السيل يُفضي إلى خراب السد بتمامه، فإخلال أي أحد بمركزه ولو كان أصغر المراكز مؤد إلى الضرر العام، وثبات كل واحد في مركزه وقيامه بحراسته هو مظهر

---

90 ـ تفسير ابن باديس، ص: 327 ـ 328.

91 ـ مصطفى محمد حميداتو: عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، ص: 87 وما بعدها.

النظام والتضامن، وهما أساس القوة»[92]..

لأجل ذلك عمل على إثارة الشعور في نفوس الجزائريين بواجبهم تجاه وطنهم ومكونات شخصيتهم، بما أداه من عمل تعليمي وتربوي وإصلاحي، آتى أكله في هذا المجال بعد ذلك.

د ـ دراسة الوسائل المتاحة وتوظيف الأنجع منها:

لقد استثمر ابن باديس رحمه الله ومعه زملاؤه من العلماء طرقا إجرائية كثيرة، تصب كلها في خانة الوسائل المشروعة الهادفة إلى تحقيق غايات مشروعة.

فعلى امتداد ما يزيد عن ربع قرن من الزمن من حياة الشيخ التي لا لم تزد على واحد وخمسين عاما، كان الشيخ رحمه الله يقضي سحابة نهاره ومعظم ليله في الجامع الأخضر أو سيدي قموش أو سيدي بومعزة أو مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة يعلم ويحاضر ويفسر القرآن ويغرس القيم الإسلامية بكل الطرق المستوحاة من منهج القرآن في التربية..

ولم يقف الشيخ عند حدود الدروس والمحاضرات في قسنطينة، بل كان دائم التجوال والانخراط في كل التجمعات التي يستطيع من خلالها أن يغرس القيم التي يؤمن بها..

وتحقيقا لأكبر أرضية يمكن أن تصل إليها هذه القيم فقد شجع الشيخ الصحافة العربية والإسلامية التي كانت تجد كل عنت من السياسة الفرنسية وعملائها[93]..

فالشيخ لم يقتصر على دور المسجد في عملية التعليم والتثقيف الجماهيري، وإنما أدرك أن هناك شرائح من المجتمع لابد أن تخاطب بوسائل إعلامية أخرى، فدخل ميدان الصحافة، وأنشأ صحافة عربية كانت منبرا رحبا، يعلن في عزم وثقة أن الحركة الإصلاحية الجزائرية، حركة

---

92 ـ تفسير ابن باديس، ص: 239.

93 ـ دكتور عبد الحليم عويس: العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري، مرجع سابق، ص. 221.

شعبية أصيلة، تعمل لإحياء التراث الثقافي للأمة وتنقيته من الشوائب التي علقت به، وتنشر الوعي الديني والاجتماعي والوطني.. وقد قامت هذه الصحافة بعمل إيجابي ضخم في مجال اليقظة الفكرية والوعي الوطني، والإصلاح الديني، وإحياء اللغة العربية، محبطا بذلك كله مخططات الاستعمار الرامية إلى تشويه الشخصية الجزائرية في كل ميدان[94].

وإذا كانت المعركة العسكرية لا تُخاض بسلاح واحد، فكذلك المعركة الفكرية، فإنها تتطلب ـ لضمان النصر فيها ـ ذكاء حادا وبصيرة نفاذة، وأساليب علمية متنوعة، وقدرة على ضبط المراحل، وإعداد ما يناسبها من مختلف الوسائل.

وعلى الرغم من عناية ابن باديس رحمه الله بالثقافة الجماهيرية، وإدراكه لأهميتها، إلا أنه ركز أيضا على بناء النخبة التي تمثل عقل الأمة ومرجعيتها وقيادتها، لذلك عمد إلى فتح المدارس والمعاهد، واهتم بوضع المناهج والأنظمة التربوية والتعليمية.

كما تنبه إلى خطورة دور المرأة في النهوض والتحرير، وأهميتها في التربية والبناء الثقافي، وأهمية تعليمها حتى تقوم برسالتها كما شرع الله، وتحسن القيام بوظيفتها في المجتمع... لذلك أوجب تعليمها وإنقاذها مما هي فيه من الجهالة العمياء، ونصح بتكوينها تكوينا يقوم على أساس العفة وحسن تدبير المنزل والشفقة على الأولاد، وحسن تربيتهم[95].

لقد حدد ابن باديس هدفه بدقة، واختار منهاجه بعناية بعد أن درس الميدان، وقدر جميع أبعاده، فأدرك أن الأمر «فصل وما هو بالهزل»، وأن المعركة ستكون شرسة، وأن الخصم لن يتساهل، بعد أن كاد يصل إلى أهدافه، بما وضع من مخططات، وسخر من طاقات لتشويه الدين، وترهيب النفوس، وتفريق السبل، وتشتيت الصفوف، لولا بقية مما ترك الآباء من بأس شديد، واستعصاء على كل دخيل، فبدأ ابن باديس يحيي ما مات أو شوه

---

94 ـ عمر عبيد حسنة، في تقديمه لكتاب: عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، ص: 29.

95 ـ م. ن، ص: 29 ـ 30.

من مبادئ، ويقوي ما وهن من أسس، لا تكون الأمة أمة إلا بها، ويصحح العقيدة، ويثبت الأفئدة، ويوحد السبل، ويوجه الطاقات وجهة سليمة. وقد استعمل من أجل ذلك كل ضرب من القول، وكل ضرب من الكتابة: مقال، خطبة، فتوى، قصة، نشيد....الخ[96].

خامسا: دور النظر المقاصدي في النتائج التي حققها العمل التغييري لابن باديس

تلك هي الرسالة التي حملها ابن باديس، وذلك هو المنهج الذي سار عليه، وهو منهج يتطابق كل التطابق مع منهج النبي عليه الصلاة والسلام في حماية الدعوة وصيانة منجزاتها، والعمل على التقدم بها أكثر فأكثر، فهو إذن منهج مقاصدي هادف يعتمد مبدأ العمل الصائب المقترن بالإخلاص المتوهج، الهادف إلى تحقيق نتائج، لا يهم أن تظهر في وقت ما أو لحظة من اللحظات، وإنما المهم أن تتحقق تلك النتائج.

وقد أكرم الله عز وجل عبده ابن باديس، فحقق له طرفا من نتائج عمله، رآها في واقع الشعب الجزائري، وهو حي يرزق قبل أن يتوفاه ربه إليه.

ولقد عرف ابن باديس هذه النتائج فراح يصفها وهو يخاطب الشعب الجزائري قائلا:

« .. حوربت فيكم العروبة حتى ظن أن قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها، فتثير الشعور والمشاعر، وتهدر خطباؤكم بشقاشقها، فتدك الحصون والمعاقل، ويهز كتابكم أقلامها، فتصيب الكلى والمفاصل.

96ـ من تقديم الشيخ عبد الرحمن شيبان للجزء الثالث من آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ص. 12 ـ 13.

وحورب فيكم الإسلام حتى ظن أن قد طمست أمامكم معالمه وانتزعت منكم عقائده ومكارمه، فجئتم بعد قرن ترفعون عَلَم التوحيد، وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد، وتدعون إلى الإسلام، كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، لا كما حرفه الجاهلون وشوهه الدجالون ورضيه أعداؤه.

وحورب فيكم العلم حتى ظن أن قد رضيتم بالجهالة وأخلدتم للنذالة، ونسيتم كل علم إلا ما يرشح به لكم، أو ما يمزج بما هو أضر من الجهل عليكم. فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخا، وتشيدون له صرحا سامقا، فأسستم على قواعد الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة جمعيتكم هذه، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وحوربت فيكم الفضيلة، فسمتم الخسف، وديثتم بالصغار حتى ظن أن قد زالت منكم المروءة والنجدة، وفارقتكم العزة والكرامة، فرئمتم الضيم، ورضيتم الحيف، وأعطيتم بالمقادة. فجئتم بعد قرن تنفضون غبار الذل وتُهَزْهِزُون أسس الظلم، وتُهَمْهِمُون هَمْهَمَةَ الكريم المحنق، وتزمجرون زمجرة العزيز المهان، وتطالبون مطالبة من يعرف له حقا لا بد أن يعطاه أو يأخذه»[97].

ومن بين النتائج التي حققتها دعوة جمعية العلماء، ما أشار إليه ابن باديس في قوله: «كان الناس منذ زمن قريب لا يسمعون ولا يسمع منهم لفظ الاهتداء بهداية القرآن العظيم والاقتداء بهدي الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والسير بسيرة السلف الصالح في النهوض بأعباء الدنيا والدين، وهم ـ إلا قليلا ـ عن هذا غافلون.

أما اليوم، بعد أن نهض العلماء المصلحون بواجبهم ونشروا دعوة الحق في قومهم، فقد أصبح ذلك معروفا عند أكثر الناس، وفي متناول الناس بجميع طبقاتهم»[98].

ولقد أدرك رحمه الله السر من وراء التمكن من تحقيق هذه النتائج،

97 ـ البصائر، السنة الثانية، العدد 83، رجب 1356 هـ، سبتمبر 1937 م.

98 ـ تفسير ابن باديس، ص: 377 ـ 378.

ويتمثل في المنهج الذي سلكه هو وإخوانه من أعضاء الجمعية، وقد بين ذلك بقوله: «وإذا كانت الجمعية بلغت ـ بتوفيق الله ـ إلى شيء من غايتها، فذلك لأنها أتت هداية الأمة من بابها، فخاطبتها بلسانها، وقادتها بدينها الذي هو زمام روحها والجزء الأعظم الذي تتكون منه وتحيا به شخصيتها، فعالجتها بالكتاب والسنة وهدي صالح الأمة، حيث يتوجه كل مسلم منشرح الصدر مطمئن النفس، وحيث تنطوي كل المذاهب والفرق، فيقل الخلاف، أو يخف، أو ينعدم، فلو كان في الجزائر جميع مذاهب الإسلام لوسعتهم هذه الجمعية بعلاجها الناجع النافع ـ بإذن الله ـ للجميع»[99].

ختاما، نقول:

لقد كانت الحركات التغييرية الإسلامية وما تزال وستظل في حاجة ماسة إلى الإدراك البصير لمقاصد الشارع، وهذا الإدراك هو الذي كفل لكثير منها ـ على مر التاريخ الإسلامي ـ أن تنجح في الوصول إلى أهدافها وتحقيق نتائج كان لها ما بعدها في التمكين لدين الله عز وجل واستمرارية خلوده على مر الزمان وتغير المكان.. وفي المقابل فقد كان الجهل بهذه المقاصد وتجاهل اعتبارها هو أيضا السبب الخفي وراء السقوط الشنيع الذي لحق بالكثير من الحركات التغييرية التي ظهرت على مسرح التاريخ الإسلامي.

«وعملية التغيير والإصلاح ـ كما هو معروف ـ لا بد أن تسبق باكتشاف الواقع، والإدراك الكامل له، وتحليله، والمفارقة بينه وبين ما يجب أن يكون، ومن ثم التفكير في الكيفيات والمناهج والبرامج التي تعيد مسيرة هذا الواقع إلى الجادة الصحيحة، في ضوء السنن التي تأخذ بعين الاعتبار الإمكانات المتاحة، والظروف المحيطة، والميراث الثقافي والحضاري، وعقيدة الأمة، ومعادلتها الاجتماعية، وحالتها الثقافية»[100]،

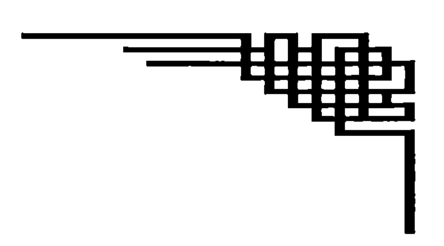
---

99 ـ آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج. 4، ص. 198.

100 ـ عمر عبيد حسنة: في تقديمه لكتاب عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، لمصطفى محمد حميداتو، ص: 14.

وكل ذلك فعله ابن باديس، وسار عليه في عمله الإصلاحي، هو وزملاؤه من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

لذا لا يسعنا إلا أن ندعو إلى التملي في المنهج الذي سلكه الإمام رحمه الله في حركته الإصلاحية التي قادها في وسط المجتمع الجزائري والتي آتت أكلها ولله الحمد، بفضل توفيق الله الذي ألهم الإمام وإخوانه العلماء إلى السلوك على ذلك المنهج، منهج النبي عليه الصلاة والسلام في التمكين للدعوة والعمل على حمايتها وصيانتها من الأخطار والخطوب، ثم التقدم بها إلى الأمام بعد ذلك.. ففي هذا المنهج الذي سلكه ابن باديس بصائر لأولي الألباب ممن لا يقصدون من وراء أعمالهم سوى مرضاة الله عز وجل، ولا يسلكون في هذه الأعمال سوى المنهج الذي يرتضيه الله عز وجل ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام، متوخين تحقيق المقاصد التي توصي التشريعات الإلهية بالعمل على تحقيقها في حياة الإنسان، متفاعلين مع المتغيرات والطوارئ، بتغيير الوسائل والتكيف مع الظروف.

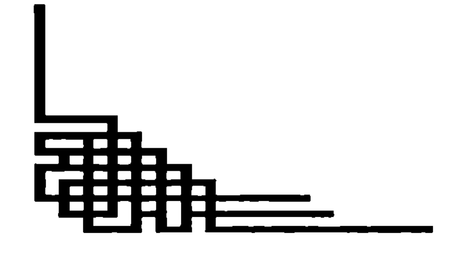


الفصل الثالث

الوحدة الوطنية الجزائرية

في فكر الإمام عبد الحميد بن باديس

وجهوده في المحافظة عليها



الوحدة الوطنية الجزائرية في فكر الإمام ابن باديس وجهوده في المحافظة عليها

توطئة:

تمثل الوحدة الوطنية عاملا مهما من عوامل الالتقاء بين الجزائريين، وأساسا مكينا من أسس بقاء كيانهم واستمرار وجودهم التاريخي والحضاري.. لذلك كانت هذه الوحدة هدفا مقصودا عمل الاستعمار على تحطيمه وتبديده، وسخر لذلك كل أجهزته وأرصدته، ولا تزال القوى المعادية للأمة الجزائرية تعمل على تحطيم وحدتها الوطنية وتشتيتها إلى عصبيات وعرقيات يصارع بعضها البعض وتفرق بينها أسباب التناحر والعداء.. ولسنا هنا بحاجة إلى ذكر الكثير من المخططات والمحاولات والمؤامرات التي حيكت وتحاك لإسقاط الوحدة الوطنية، لأنها الحاجز المنيع أمام أي انتهاك لحرمة الوطن، والحامي لثرواته وطاقاته وخيراته التي يريد الكثير من الأعداء الاستيلاء عليها والاستئثار بها.

واليوم، إذ يعاني مجتمعنا من أزمة شاملة باتت تهدد كيانه وتعمل على تحطيم مستقبله، خاصة وقد استغلتها بعض الأصوات الناعقة هنا وهناك منادية ببعض الدعوات التي لا نتيجة لها سوى تقويض الوحدة الوطنية وبث أسباب الفرقة والشقاق بين الجزائريين، مدعومة بقوى أجنبية فاعلة لا يخفى عداؤها للشعب الجزائري وعملها المستمر على تشتيت كيانه.. نحن بحاجة ماسة إلى إعادة التفكير في مقومات وحدتنا الوطنية واستدعائها من جديد إلى بؤرة الشعور الجمعي لأفراد المجتمع، حتى نضمن لها الاستمرارية في النفوس والأرواح قبل الواقع والأوضاع.

هذه الدراسة قراءة في فكر رجل بذل جهودا قصوى في سبيل حماية الوحدة الوطنية، منطلقا من وعي عميق بأهمية هذه الوحدة، وإدراك لضرورة كل مقوم من مقوماتها.. إنه رائد الحركة الإصلاحية الحديثة في المجتمع

الجـزائري، الإمـام الشـيخ عـبـد الحـمـيـد بن باديس رحـمـه الله.. الذي مَـثَّل الحفـاظُ على الوحدة الوطنية أحـد أبرز مـحـاور العمل الإصـلاحـي الذي قاده في واقع المجتمع الجزائري خلال النصف الأول من القرن الماضي.

أولا: مـوقـع الوحدة الوطنيـة بـيـن اهـتـمـامـات ابـن بـاديـس

ابن باديس رجل إصـلاح وتـغـيـيـر، قـبل أي شيء آخـر، ومـن طبـيـعـة المصلح الاجـتـمـاعي أن لا يقـصـر جـهـده التـغـيـيـري والإصـلاحـي على جـانب مـعين من جـوانب الحـيـاة دون بقـيـة الجـوانب الأخـرى، بل يَمُدُّ نظرَه إلى كل المجالات سعيا إلى إصلاحها وتغيير أحوالها نحو الأفضل والأحسن. لذلك نجـد المصلحين عادة مـا يسلكون مناهج شـاملة ذات أبعـاد فكرية وحـضـارية عـامـة. ومن هؤلاء إمـام الجزائر ورائد حـركتـها الإصـلاحـيـة في النصف الأول من هذا القـرن الشـيخ العلامـة عبـد الحـمـيـد بن باديس رحـمـه الله، الذي قـاد حركة إصلاحية شاملة استهدفت تغيير حياة الجزائريين ونقلهم من حال إلى حال.

من هـنـا نجـد أن اهـتـمـام الشـيخ رحـمـه الله بالوحـدة الوطنيـة يندرج ضمن اهتمام أكبر يمتد ليشمل دائرة أوسع.. اهتمام يتعلق أساسا بانتشال أمة غارقة في أوحال الجـهل والتـخلف والاسـتـعـبـاد، والعمل على الارتفاع بها إلى مستوى تشعر معه بأهميتها وحقوقها ومكانتها بين الأمم.

فـقـد ولد ابن بـاديس رحـمـه الله في سنة 1889 م، أي قـبل بداية هذا القرن بأكثر من عقد من الزمن، وقد تفتح وعيه في بداية القرن العشرين على واقع مؤسف يعيشـه المجـتمع الجزائري، واقع أبرز مـا يمـيزه هو الاسـتـغلال الفظيع الذي كـان يتـعـرض له الجـزائريون من قِبَل المعـمـرين الفـرنسـيين من جـهة، ومـخـتلف أساليب التجهيل التي تُمارَس على هؤلاء الجـزائريين من قـبل الإدارة الاسـتـعـمـارية لكي تبـقـيـهم على وضع من الغـفلة والذهول التـام عن

حقوقهم ومصالحهم التي سطت عليها وأرادت أن تحافظ عليها وإلى الأبد، من جهة ثانية.. ولكي يُبْقِي الاستعمار الفرنسي على هذه الوضعية التي أحاط بها الجزائريين، عمل بوسائل مختلفة وفي مجالات متعددة على تحقيق هذا الهدف.. وكان من أهم الوسائل التي سلك عليها؛ تأجيجُ أسباب الفرقة والشقاق بين أفراد المجتمع الجزائري، بإثارة النعرات العرقية والجهوية واللغوية، والعمل على حمل الجزائريين على الاشتغال بها والغفلة عن غيرها من القضايا المصيرية التي كان الاستعمار يعمل جاهدا لاستمرار غفلتهم عنها. يقول ابن باديس في وصف هذه الوضعية: "لقد كان هذا العبد [يتحدث عن نفسه] يشاهد قبل عقد من السنين هذا القطر قريبا من الفناء، ليست له مدارس تعلمه، وليس له رجال يدافعون عنه ويموتون عليه. بل كان في اضطراب دائم مستمر، وياليته كان في حالة هناء، وكان أبناؤنا يومئذ لا يذهبون إلا للمدارس الأجنبية التي لا تعطيهم غالبا من العلم إلا ذلك الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف، حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم، وقد ينكرونها"[1].

ولأن ابن باديس رحمه الله قد وصل بتأملاته في واقع المجتمع الجزائري،، إلى أن هذا المجتمع أصبح كيانه مهددا بالذوبان والفناء.. فإنه عمل على انتشال هذا المجتمع من هذه الوضعية، وذلك بالسعي لإنقاذ الشخصية الجزائرية مما سقطت فيه من ضيا ع وانهيار حضاري شامل على كافة المستويات. وهذا العمل لم يكن ليتم إلا بالعمل على إحياء ما تبقى من مقومات هذه الشخصية، وكان لابد له أن يكافح على أكثر من مستوى، وفي أكثر من مجال.. وكان من بين هذه المجالات؛ مجال الوحدة الوطنية الذي عمل فيه بكل ما يستطيع من جهد وقوة، بغية الحفاظ على وحدة الشعب الجزائري، التي هي السبيل إلى أن يبقى هذا الشعب في منأى عن الذوبان في مخططات فرنسا وتدابيرها.

فالشيخ الإمام رحمه الله كان يدرك جيدا أن الفرد لوحده لا يستطيع

---

1 ـ آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج: 4، ص: 148.

أن يقيم لنفسه كيانا، ولا يستطيع أن يدافع عن مصالحه ويحقق حاجاته إلا في إطار جماعة تربطه بغيره من بني وطنه وأمته، ذلك أن "الارتباط بالجماعة والتعاون معها يضاعف مقادير القوة، لأن القوة المجتمعة تصمد أمام القوى الأخرى المعادية، بخلاف القوى الانفرادية المتناثرة أو القوى المجزأة، فإن أية قوة معادية تستطيع الظفر بها، والتغلب عليها والتحكم بمقاديرها"[2].. لذلك عمل رحمه الله على إحياء الوحدة الوطنية بين الجزائريين وتنميتها من خلال إحياء المقومات المشتركة التي تجمع بينهم ويتكون منها كيانهم.

ثانيا: مفهوم الوحدة الوطنية في فكر ابن باديس

يعتبر ابن باديس رحمه الله، أن الوحدة هي العامل الأساس في تحصيل القدرة على إقامة الكيان الحضاري للأمة أو المجتمع وبنائه وتمكينه من الوقوف في وجه محاولات الإسقاط والتبديد. وهو ينطلق في حديثه عن الوحدة من اعتبارها فريضة دينية، يُطالَب المؤمنون بإقامتها في حياتهم وفي علاقاتهم، دون أن يكون لهم في ذلك خيار.

يقول رحمه الله: «الواجب على كل فرد من أفراد المؤمنين أن يكون لكل فرد من أفراد المؤمنين كالبنيان في التضام والالتحام، حتي يكون منهم جسد واحد، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهّر والحمى».....

ألا ترى البنيان كيف يتركب من الحجارة الكبيرة، والحجارة الصغيرة، والمواد الأخرى التي تُلحم بها الحجارة وتُكسى، وكل ذلك محتاج

2 ـ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: الأمة الربانية الواحدة. مجلة الرسالة، وزارة الشؤون الدينية ـ الجزائر، العدد: 13/ 14، ذو الحجة 1408 هـ، محرم ـ ربيع الأول 1409 هـ، ص: 80.

إليه في تشييد البنيان، فكذلك مجتمع المؤمنين فإنه متكون من جميع أفرادهم على اختلاف طبقاتهم، فالكبير والجليل له مكانه، والصغير والحقير له مكانه، وعلى كل واحد أن يسد الثغرة التي من ناحيته، مع شعوره بارتباطه مع غيره من جميع أجزاء البنيان التي لا غناء لها عنه، كما لا غناء له عن كل واحد منها، فكل واحد من المؤمنين عليه تبعته، بمقدار المركز الذي هو فيه، والقدرة التي عنده، ولا يجوز لأحد وإن كان أحقر حقير أن يخل بواجبه من ناحيته، فإنه إذا أزيل حجر صغير من بنيان كبير دخل فيه الخلل بمقدار ما أزيل، وإذا ابتدأ الخلل من الصغير تطرق للكبير»[3].

ويستخلص الإمام من التاريخ الإسلامي العبرة في هذا المجال، مؤكدا أن السماح لأسباب الفرقة والخلاف أن تسري في الدائرة الاجتماعية للأمة سيفضي لا محالة إلى انهيار هذه الأمة وتحطمها وذهاب أمرها.

فيقول بعد تحليل أبرز فيه ما كان عليه المسلمون في تاريخهم وكيف آل حالهم إلى ماهم عليه من انهيار واندثار، نتيجة تنازعهم وصراعاتهم على الأهواء والشهوات والعصبيات: «لقد كان افتراقهم السبب الأول الأقوى لجميع البلايا والمحن الداخلية والخارجية التي لحقتهم في جميع أجيالهم أيام قوتهم وأيام ضعفهم، وإن تاريخهم لعبرة، وإن في أنبائهم لمزدجرا».

ثم يوجه الخطاب إلى الجزائريين، قائلا: «حق علينا، معشر الجزائريين، اليوم أن نتدبر تلك العبر، وأن نزدجر عما في مصائب الفرقة من خطر»[4]. ويقول في موضع آخر: «علينا أن نعتقد بقلوبنا أن الاتحاد واجب أكيد، محتم علينا مع جميع المؤمنين، وأن فيه قوتنا وحياتنا، وفي تركه ضعفنا وموتنا، وأن نعلن ذلك بألسنتنا في كل مناسبة من أحاديثنا، وأن نعمل على تحقيق ذلك بالفعل باتحادنا وتعاوننا مع إخواننا في كل ما يقتضيه وصف الإيمان الجامع العام»[5].

---

3 ـ مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ص: 100 ـ 101، بتصرف.

4 ـ آثار ابن باديس، ج: 6، ص: 80 ـ 81.

5 ـ مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ص: 102.

ومع أن ابن باديس لا يخص خطابه ـ في كثير من الأحيان ـ بالجزائريين، بل يتحدث عن المؤمنين بوجه عام، إلا أن المتأمل سيدرك بسهولة أن أول المؤمنين المخاطَبِين هم الجزائريون، هؤلاء الذين يعتبر ابن باديس نفسه مسؤولا عن تعليمهم ودعوتهم وإرشادهم ومحاولة انتشالهم من الوضعية التي يتقلبون في بأسائها وضرائها.

وذلك واضح كل الوضوح في وصية الإمام إلى المسلم الجزائري، إذ يقول له فيها: «حافظ على حياتك، ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك وجميل عاداتك»[6].

لذلك يمكننا أن نقول أن الوحدة الوطنية في نظر ابن باديس هي اتحاد الجزائريين وتعاونهم فيما بينهم لإنقاذ وطنهم وتحرير أرضهم وبناء مجتمعهم، بحيث يشعر كل منهم بواجبه تجاه وطنه وبني وطنه، دون أن يكون حبه لوطنه دافعا له إلى كراهية الأوطان الأخرى، أو يكون حبه لبني قومه دافعا له لبغض أبناء الأمم والأوطان الأخرى.

فلا ضير أن تؤمن بوطنيتك الجزائرية، وتشعر بالاحترام لبقية الإنسانية، وفي هذا يقول ابن باديس: «إننا نحب الإنسانية ونعتبرها كلا، ونحب وطننا ونعتبره منها جزءا، ونحب من يحب الإنسانية ويخدمها، ونبغض من يبغضها ويظلمها. وبالأحرى؛ نحب من يحب وطننا ويخدمه، ونبغض من يبغضه ويظلمه. فلهذا نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائري وتحبيب بنيه فيه، ونخلص لكل من يخلص له، ونناوئ كل من يناوئه من بنيه ومن غير بنيه»[7].

ولا شك أن من أبسط المفاهيم المتفرعة عن الوحدة والاتحاد؛ التعاون فيما بين أفراد المجتمع وتناصرهم على أعدائهم أولا، ثم الحذر من أي محاولة يحاولها أولئك الأعداء لتقويض هذه الوحدة، فيدخلوا من النافذة حين يعجزون عن الدخول من الباب، وذلك بواسطة إثارة النعرات التي من شأنها

6 ـ آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج: 4، ص: 43.

7 ـ المنتقد، ع: 1، ذي القعدة 1343 هـ ـ جويلية، 1925 م.

أن تحـيل الوحـدة إلى فـرقـة، والاتحـاد إلى تنازع وصـراع.. وإننا نحن الجزائريين لفي حاجة ـ اليوم أكثر من أي وقت مضى ـ إلى الانتباه إلى هذه القضية، واستحضار الخطر الكبير الذي سينجر حتما إذا ما غفلنا عن أساليب الأعداء ومحاولاتهم المستمرة لتقسيم كياننا الوطني وإثارة النعرات الجهوية واللغوية التي لا هدف لها سوى تقويض هذه الوحدة الوطنية التي نعتز بها ونعمل على تمتينها واستمرارها، وإن لنا في هذا أسوة بإمامنا ابن باديس الذي تفطن إلى دسائس الاستعمار في هذا الإطار فعمل على مواجهتها قبل أن يستفحل أمرها ويعم خطرها.

ثالثا: دعائم الوحدة الوطنية في نظر ابن باديس

تقوم الوحدة الوطنية في نظر ابن باديس رحمه الله على جملة من الدعائم والأركان، هذه الأركان في حقيقتها، ليست سوى دعائم الشخصية الوطنية ومكوناتها الأساسية، وهي الدين واللغة العربية والوطن والتاريخ والمصير المشترك.

وقد جمع ابن باديس هذه المقومات في كلمة جامعة له فقال:

«تختلف الشعوب بمقوماتها ومميزاتها كما تختلف الأفراد. ولا بقاء لشعب إلا ببقاء مقوماته ومميزاته كالشأن في الأفراد. فالجنسية القومية هي مجموع تلك المميزات والمقومات. وهذه المقومات والمميزات هي اللغة التي يعرب بها ويتأدب بآدابها، والعقيدة التي يبني حياته على أساسها، والذكريات التاريخية التي يعيش عليها وينظر لمستقبله من خلالها، والشعور المشترك بينه وبين من يشاركه في هذه المقومات والمميزات»[8].

وهذه المكونات هي الأهداف الكبرى التي عمل ابن باديس على رعايتها وخدمتها ـ كلها مجتمعة وعلى درجة واحدة من الأهمية ـ في كفاحه

8ـ الشهاب، ج: 12، م: 12، ذي الحجة، 1355 هـ، فيفري 1937 م.

التربوي والعلمي الذي خاضه في النصف الأول من القرن الماضي.

والمتأمل في ما قام به ابن باديس من أعمال وما تركه من مقالات وآثار سيجد أن «الاهتمام بالنضال من أجل الوطن والدين واللغة واضح في كل أعماله وخطبه ومقالاته، ثم إن الربط بين هذه العناصر المتكاملة واعتبارها شيئا واحدا ظاهر كذلك في أفكاره وأعماله وبرامجه، لأنه لا يتصور أن الإسلام مفصول عن اللغة العربية، وأن هذه الأخيرة مفصولة عن القرآن والإسلام، كما لا يتصور الجزائر باعتبارها وطنا عربيا إسلاميا مفصولة عن هذين العنصرين... فالدين واللغة والوطن عناصر لشيء واحد هو الشخصية الوطنية التي لا يمكن أن يُنظر إليها من جانب واحد فقط... والشيء الذي كان يدور في ذهن الإمام حين أطلق شعاره المعروف: «الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا»، هو أن الشيء الذي يُبذل في هذا المجال يجب أن يستهدف تحرير الشخصية الوطنية مما علق بها، وتخليصها من مظاهر الزيف والتشويه، وتحديد سماتها البارزة، وإعادة الاعتبار لها حتى تزدهر وتنمو، وتعود لها هيبتها وقدرتها على العطاء...

ومن ثم، فالفصل بين عناصر الشخصية الوطنية، هو نوع من الفصل المصطنع بين مكونات الشيء الواحد الذي إذا سقط منه عنصر ذهبت حقيقته، وتلاشت ماهيته»[9].

ونقدم فيما يلي كلمة مختصرة عن كل واحدة من هذه المقومات المكونة للوحدة الوطنية في نظر ابن باديس:

أ - الوحدة الدينية الإسلامية:

يمثل الإسلام المقوم الأول للشخصية الوطنية الجزائرية، إذ أن هذا المقوم يعود - في تاريخه - إلى أربعة عشر قرنا من الزمان، دخل خلالها هذا المقوم إلى أعماق النفس الجزائرية، وسرى في الدم واللحم والعظم، وامتزج معها امتزاجا كليا.. هذا الإسلام كان دائما خلال هذا المسار

9 - محمد الصالح رمضان وعبد القادر فضيل: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص: 55.

التاريخي الطويل هو مظهر هذه الأمة ولباسها وهويتها التي تتمظهر بها بين الأمم وتُعرف بها بينها.. ولأجل الحفاظ على هذه الهوية ظل المجتمع الجزائري يقاوم خلال هذا المسار الطويل.

لذلك فإن الإسلام يعتبر عامل الوحدة الوطنية الأول، إذ يملك من أسباب الجمع والتوثيق بين الأفراد الرصيد الأعظم، فتعاليمه كلها تدور حول التعاون والتآزر والتناصر والأخوة المتبادلة بين أفراد المجتمع.. تلك القيم التي من شأنها أن تزيد في ارتباط الجزائريين بعضهم ببعض، وتدعم تناغمهم وتعاونهم على النهوض بوطنهم وحماية مقومات شخصيتهم.

ولا يعني اعتبار ابن باديس للإسلام مقوم الشخصية الوطنية الأول: أن هذا الإسلام حكر على الجزائريين دون غيرهم، أو أن للجزائريين إسلامهم الذي يختلف عن إسلام بقية الشعوب الإسلامية الأخرى، وإنما المقصود من اعتبار ابن باديس للإسلام أحد مقومات الشخصية الوطنية، هو أن هذا الإسلام هو المنوط به حفظ هذه الشخصية «من الانحلال ومحاولات المسخ والدمار التي حاولها الاستعمار لتدمير كياننا الروحي والحضاري. وبِجَعْلِه [أي ابن باديس] الإسلام إحدى مقومات شخصيتنا، كان يهدف إلى الإبقاء على هذا الكيان الصغير ـ الجزائر ـ محفوظا سليما في هذه البقعة الصغيرة من الأرض، ضمن الكيان الإسلامي الكبير الذي لا يعرف له حدودا سوى حدود العقيدة من مطلع الشمس إلى مغربها»[10].

لذلك نجد ابن باديس يدعو الشعب الجزائري إلى الالتفاف حول جمعيته، باعتبارها العاملة على الحفاظ على إسلامه وعروبته وسائر مقوماته، ويحذره من الاستماع إلى أولئك الذين ينعقون في كل مكان متهمين الجمعية بما ليس فيها من أوصاف ومحملين لها ما لم تقترفه من الأعمال. فيقول: «أيها الشعب الجزائري الكريم..

قد بينت لك جمعيتك حقيقة الموقف وحرجه، وكشفت لك شيئا مما

---

10 ـ إبراهيم مزهودي، في مجلة الأصالة، س: 1، ع: 1، محرم 1391 هـ، مارس 1971 م، ص: 99.

تعانيه أنت وتعانيه هي من الأقرباء والبعداء، وهي تدعوك إلى التبصر والتثبت والاتحاد والتجمع والتنبه والتيقظ، وتحثك على الاعتماد على الله وحده، ثم على نفسك والصادقين من أبنائك، وما الصادقون إلا الذين يحافظون بأقوالهم وأعمالهم ومواقفهم على إسلامك وعروبتك وجميع مقوماتك، يناضلون بالنفس والنفيس عن جميع حقوقك»[11].

إن الإسلام إذن هو المصل الواقي الذي يقي مجتمعنا الجزائري ويلات التشتت والانهيار، ويساهم في استمرار الشعور الجمعي بالوحدة بين أفراد المجتمع الجزائري، استمرارا متصاعدا، يقوى ويترسخ مع مر الأيام.

لذلك وجدنا ابن باديس رحمه الله، وهو يؤدي عمله الإصلاحي في واقع المجتمع الجزائري، يحرص على استمداد منهجه في العمل من تعاليم الإسلام ووصاياه، ويقول رحمه الله في تعليل اختياره للمنهج الديني في الإصلاح: «.. إننا اخترنا الخطة الدينية على غيرها، عن علم وبصيرة، وتمسكا بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا من النصح والإرشاد، وبث الخير والثبات على وجه واحد والسير في خط مستقيم. وما كنا لنجد هذا كله إلا فيما تفرغنا له، من خدمة العلم والدين، وفي خدمتهما أعظم خدمة وأنفعها للإنسانية عامة»[12].

ب ـ الوحدة اللغوية:

وكما يمثل الإسلام عاملا من عوامل الوحدة الوطنية ومقوماتها، فإن اللغة العربية لا تقل أهمية في هذا الإطار، إذ تضيف إليه عاملا آخر يزيد في قيمته وقوته، فهذا الإسلام نفسه لا يمكن فهم نصوصه وإدراك تعاليمه إلا بتعلم هذه اللغة وإتقان فهمها والحديث بها. ويبرز ابن باديس دور اللغة في توحيد كيان الأمة، فيقول: «... تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد، فليس الذي يكوِّن الأمة

---

11 ـ آثار ابن باديس، ج: 5، ص: 333 ـ 334.

12 ـ الصراط السوي، السنة الأولى، العدد 15، قسنطينة، رمضان 1352 هـ، ديسمبر 1933 م.

ويربط أجزاءها ويوحد شعورها ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد».

فاللغة العربية هي العامل الجامع بين الجزائريين على اختلاف أعراقهم وتنوع لهجاتهم، وبها وحدها يستطيعون أن يتفاهموا ويتخاطبوا فيما بينهم، دون أن يضطر أي منهم إلى أن يسأل الآخر عما يقصده من حديثه.. وهذه اللغة، إلى جانب الإسلام، هي العامل الذي يجمع ماضي الجزائر وحاضرها ومستقبلها. يقول ابن باديس في هذا الصدد:

«لا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد، إلا هذا الحبل المتين: اللغة العربية، لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المغروسة.. إنها وحدها الرابطة بيننا وبين ماضينا، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين أرواحهم بأرواحنا، وهي وحدها اللسان الذي نعتز به، وهي الترجمان عما في النفس من آلام وآمال»[13].

فاللغة العربية – في نظر ابن باديس – تمثل التاريخ الذي نسج حياة الجزائر الثقافية، ومزج بين عناصرها، وصنع من ذلك كله كيانا واحدا موحدا أبوه الإسلام وأمه الجزائر ولسانه العربية، ولا يمكن لهذا المجتمع إلا أن ينظر إلى اللغة العربية على أنها تاريخه الحي الذي يطلعه على تراثه ويصله بجهود أمته وجهادها[14].

ولا يرى ابن باديس أي تعارض بين أن يكون الجزائري أمازيغيا، وأن يكون لسانه ناطقا باللغة العربية، بل إنه يعتبر هذا دليلا على أصالة الشعب الجزائري وارتباطه الوثيق بعقيدته الإسلامية ولغته العربية.

فالشعب الجزائري، وإن كان يتكون من أكثر من عنصر إنساني، إلا أن الامتزاج التام بين هذه العناصر منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، والاتحاد الحاصل في العقيدة واللسان يقطع الطريق على كل متقول أو شاك في

---

13 ـ آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج: 4، ص: 147 ـ 148.

14 ـ محمد الصالح رمضان وعبد القادر فضيل: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص: 75.

عروبة الجزائر ووحدتها اللغوية، وينفي كل زعم يحاول صاحبه تفتيت هذه الوحدة[15]. ولدحض كل الحجج والأقاويل، يورد ابن باديس الحديث الشريف الذي يقول: «ليست العربية بأحدكم من أب أو أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي».. وسبب ورود الحديث أن أحد المنافقين نفى العربية عن سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي رضي الله عنهم جميعا[16].. وهكذا فالجزائريون جميعا عرب بمقتضى كونهم مسلمين أولا، وبمقتضى نطقهم بلغة دينهم العربية ثانيا.

إن ابن باديس بهذا كأنه يفند محاولات أولئك الذين يعملون اليوم في الجزائر على انتقاص المساحة التي تتحرك عليها اللغة العربية من كل أطرافها، إن على الصعيد الاجتماعي أو الصعيد الإداري، بدعوى العمل على التمكين للأمازيغية.. وهم في الحقيقة لا يريدون إلا أن يمكنوا للغة الفرنسية، لغة الاستعمار والمستعمرين، أما الأمازيغية المسكينة فليست سوى قميص عثمان الذي يُستعمل للدعوى والاعتراض.. وقد دلت كل أعمال وأقوال هؤلاء على هذه الحقيقة الساطعة، التي تتجلى على ألسنتهم حين يتحدثون إلى شعب عربي أمازيغي بلغة فرنسية، فهل شعبنا الأمازيغي يفهم الفرنسية ولا يفهم العربية؟!!..

ج ـ وحدة الموطن:

فالجزائريون يشتركون في انتمائهم جميعا إلى وطن واحد هو الجزائر، وهذه الوحدة في الانتماء تكفي في إنهاء كل أسباب التفريق والتمييز فيما بينهم، وتسهم في ربط أواصر اللقاء والتعاون بين شرائحهم.

ولقد رأى ابن باديس أنه لتأجيج الشعور بالوحدة الوطنية بين الجزائريين، ينبغي تأجيج الشعور قبل ذلك بوحدة الانتماء إلى الوطن الواحد والأرض الواحدة وإن اتسعت أطرافها وامتدت مناطقها.

---

15 ـ م. ن، ص: 75.

16 ـ محمد الطاهر فضلاء: قال الشيخ الرئيس، ص: 201.

لذلك كان الشيخ رحمه الله لا يفتأ يذكر طلبته الذين كانوا يُقْبِلون من مختلف مناطق الجزائر، بضرورة التعارف والتفاهم والتعاون حتى يُرَبُّوا على ذلك أبناءهم وتلامذتهم عندما يكونون معلِّمين، وقد قال لطلبته يوما:

«إن وطننا الجزائر واسع الأطراف، متعدد المناطق والبيئات، حتى كاد يستقل بعضها عن بعض، فوجب علينا أن نربط بين حاضرته وباديته بما لدينا من وسائل الاتصال حتى نقرب بينها تقريبا يجعل المواطنين يتعارفون ويتعاونون كأبناء وطن واحد. وإن من جملة الوسائل التي تساعد على تحقيق هذا الهدف في مطلع نهضتنا العلمية، هذه الحلقات التي استطاعت بفضل الله أن تجمعكم من عدة جهات، لا فرق بين من قدِموا إليها من الحواضر وبين من قدموا من البوادي، وإني لأكون فرحا مغتبطا حينما ألتفت حولي فأجد أبناء الصحراء بجنب أبناء الجبال وأبناء الحاضرة بجنب أبناء البادية، والجميع قد جمعتهم هذه الحلقات العلمية في صعيد واحد، لا فضل لأي منهم على الآخر إلا بالاجتهاد والعمل»[17].

ولا يكتفي الإمام ابن باديس بتأكيد أسباب اللقاء بين الجزائريين من خلال اجتماعهم في موطن واحد، بل يضيف إلى ذلك العمل على غرس حب هذا الوطن في النفوس حتى تشب على الإحساس بالواجب تجاهه وتعمل مشتركة متعاونة على حمايته والحفاظ عليه.

ومن كلماته في هذا الإطار: «إنما يُنسَب للوطن أفرادُه الذين ربطتهم ذكريات الماضي ومصالح الحاضر وآمال المستقبل، والنسبة للوطن توجب علم تاريخه، والقيام بواجباته، من نهضة علمية واقتصادية وعمرانية، والمحافظة على شرف اسمه وسمعة بنيه، فلا شرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه، ولا سمعة لمن لا سمعة لقومه»[18].

وقد أعطى ابن باديس المثل من نفسه حين أعلن أنه يعيش للإسلام

---

17 ـ محمد الصالح الصديق: خاتمة الجزء السادس من آثار ابن باديس، ص: 380. وقد نقله عن: أوراق للشيخ علي مرحوم سجل فيها انطباعاته عن شيخه الإمام.

18 ـ الشهاب، ج: 10، م: 5، جمادى الثانية 1348 هـ ـ نوفمبر 1929 م.

وللجزائر، وبرر ذلك فقال:

«أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص، وتفرض عليّ تلك الروابط لأجله، كجزء منه، فُرُوضا خاصة، وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمَدَّة منه مباشرة. فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أول ما تتصل به من شيء تتصل به مباشرة. وكما أنني كلما أردت أن أعمل عملا وجدتُني في حاجة إليه، إلى رجاله، وإلى ماله، وإلى حاله، وإلى آلامه، وإلى آماله، كذلك أجدني إذا عملت قد خدمت بعملي ناحية أو أكثر مما كنت في حاجة إليه»[19].

ولا يعني هذا أن ابن باديس رجل متعصب لبني قومه، غافلا عن بني أمته الآخرين، منغلقا على وطنه الصغير المحدود الجزائر، دون وطنه الكبير وطن الإسلام والمسلمين.. فالرجل لم يكن يخدم وطنه فحسب، وإنما كان يريد أن يخدم الإنسانية كلها لو استطاع، ولكنه رأى أن الطريق إلى ذلك إنما تبدأ من خدمة وطنه وبني قومه، ثم إن تمكن بعد ذلك مَدَّ عمله ليشمل الإنسانية كلها في مختلف شعوبها وأقطارها. يقول ابن باديس في هذا الشأن:

«الإخلاص أن تعمل لوطنك ولو أنكرك وأنكر عملك أبناءُ وطنك، وتكريس العمل أن تكون جميعُ أعمالك عائدةً بالخير على وطنك، فتستطيع أن تنفع الناسَ كلهم دون أن تضر بوطنك، فتكون قد خدمت وطنك بما زرعت له من محبة في قلوب من أحسنت إليهم من الناس.. فحب وطنك ولا تبغض أوطان الناس. انفع وطنك ولا تضر أوطانا أخرى، بل اجتهد لأن تكون مصدر محبة شاملة ونفع عام»[20].

إن هذه الروح الوطنية الدافقة التي كان يفيض بها قلب ابن باديس وتظهر في سلوكاته وتصرفاته ودعواته في دروسه ومحاضراته، هي التي نفتقد إليها اليوم في حركتنا الحياتية داخل هذا الوطن الكبير الذي نعيش فيه، فلقد انعدمت هذه الروح من النفوس أو تكاد، وأصبح هم كل واحد هو

19 ـ آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج: 4، ص: 112.

20 ـ آثار ابن باديس، ج: 6، ص: 203 ـ 204.

العمل لما فيه مصلحته الخاصة، والسعي بكل وسيلة لتحقيقها وتحصيلها، دون النظر إلى ما يمكن أن ينتج عن ذلك من هدم للمصلحة الوطنية العامة.. والخطر كل الخطر في تضخم الـ«أنا» الفردي على حساب الـ«نحن» الجماعي، لأن الفردية لا تصنع إنسانا سويا، بقدر ما تحوله إلى وحش كاسر لا يلوي في سبيل تحقيق مصلحته الخاصة على شيء.

د ـ التاريخ المشترك:

تجمع بين الجزائريين ذكريات تاريخية مشتركة تعود إلى مئات السنين.. ذكريات عايشوا معها السراء والضراء، وكانوا في الحالين دائما مشتركين، متآزرين متعاونين.. وأعظم هذه الذكريات تلك التي جمعتهم على الدفاع عن بلادهم والمنافحة عن مقومات شخصيتهم، في وجه الحملات العدائية التي ظلت تُشن على الجزائر عبر التاريخ، مستهدفة تحطيم كيانها والاستيلاء على خيراتها، وإنهاء وجودها التاريخي والحضاري.

لذلك فإن هذه الذكريات تمثل عامل جمع وتوحيد، وينبغي على الجزائريين أن يتخذوا منها وسيلة إلى بناء حاضر مشترك ينعمون فيه جميعا بالخير والرفاهية، ويأملون معا في مستقبل مشترك يجمعهم أيضا على الخير والسعادة.

ويعتبر ابن باديس أن الذكريات التي جمعت الجزائريين هي تلك المتصلة بالإسلام والعربية، فمنذ أن دخل الإسلام هذه الأرض، ومنذ أن نطقت ألسنة البربر بالعربية، منذ ذلك الحين بدأ تشكل الكيان الجزائري الذي انتهى إلى ما هو عليه الآن.

ولا يعني هذا أن ابن باديس يقول بذوبان أمازيغية الشعب الجزائري ضمن العروبة، فهو "يؤكد أنه ليس هناك من ينكر أن الأمة الجزائرية «كانت أمازيغية من قديم عهدها»، وأن جميع الأمم التي اتصلت بها لم تستطع «أن تقلبها عن كيانها» ولم «تخرج بها عن أمازيغيتها أو تدمجها في عنصرها، بل كانت هي التي تبتلع الفاتحين فينقلبون إليها ويصبحون كسائر أبنائها».

فهو يقرر الأصل البربري المازيغي للجزائر، دون أن يحاول إنكاره أو تجاهله كما يفعل الآخرون، إلا أنه لا يلبث أن يقرر حقيقة أخرى لا يستطيع أن ينكرها أيضا، وهي أن الأمازيغ من أبناء الوطن الواحد دخلوا «في الإسلام وتعلموا لغة الإسلام العربية، طائعين، فوجدوا أبواب التقدم في الحياة كلها مفتوحة في وجوههم، فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة، وقاسموهم في مجالس العلم وشاطروهم في سياسة الملك وقيادة الجيوش، وقاسموهم كل مرافق الحياة، فأقام الجميع صرح الحضارة الإسلامية».

وهكذا أصبحوا شعبا واحدا «متحدا غاية الاتحاد، ممتزجا غاية الامتزاج، وأي افتراق يبقى بعد أن اتحد الفؤاد واتحد اللسان».

وهكذا يحلل ابن باديس التفاعل الذي تحقق من امتزاج العرب والبربر في ظل الإسلام، ويؤكد بصريح العبارة مساهمة الأمازيغ إلى جنب العرب في بناء صرح الحضارة الإسلامية، فاستحقوا بُنُوَّتَها على قدم المساواة دون تفرقة أو تمييز"[21]..

إن هذه الجوانب الإيجابية في الماضي، والتي تجمع الجزائريين جميعا، بل وتمثل مناط فخرهم وعزتهم، هي التي يدعو ابن باديس إلى التمسك بها وذكرها وتربية الأبناء عليها، حتى تتوطد أركان الوحدة بين الجزائريين ويكونوا يدا واحدة في بناء وطنهم ومواجهة أعدائهم.

أما تلك الدعوات المشبوهة التي كانت في زمن ابن باديس ولا زال صوتها يعلو إلى اليوم، والتي تعمل على بث أسباب الفرقة والشقاق بين العرب والبربر، من خلال اعتبار العرب غزاة محتلين، والأمازيغ مضطَهَدين مقهورين، فهي دعوات لا هدف لها في الحقيقة إلا الدعوة إلى رفض ما جاء به العرب معهم ألا وهو الإسلام الذي يدين به كافة أفراد المجتمع الجزائري على تنوع أعراقهم واختلاف أجناسهم، واللغة العربية التي هي اللسان الجامع بينهم..

21 ـ محمد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، ص: 47 ـ 48.

هـ ـ وحدة المصير:

وكما أن الجزائريين ينتمون إلى موطن واحد، هم مطالبون بالمحافظة عليه وحمايته من كل دخيل، وكما يجمعهم أيضا تاريخ واحد ينبغي عليهم تذكره واستحضاره، فهم كذلك يشتركون في وحدة المصير الذي يجمعهم، فما يصيب شبرا من أرض الجزائر يلتزم كافة الجزائريين بالدفاع عنه، لأن كل واحد منهم يعتبر مسؤولا عنه إلى جانب غيره من بقية الجزائريين.. وما يصيب فريقا من الجزائريين، يكون بقيتهم مطالبين بالشعور بالألم لأله وبواجب النهوض لحمايته ونصرته.. فمصير الجزائريين جميعا واحد، وما قد يتهدد طرفا من بلادهم أو أبناء جهة من جهات وطنهم، هو بالضرورة يتهدد بقية الأطراف وسائر أبناء الجهات الجزائرية الأخرى.

فوحدة المصير بين الجزائريين توجب عليهم أن يوجهوا جهودهم إلى إعداد العدة اللازمة للدفاع عن دينهم ولغتهم ووطنهم، لحماية كل ذلك من أي عدو محتمل. وذلك لا يتأتى إلا بوحدتهم التي هي السد المنيع والحصن الحصين في وجه كل الأطماع التي تستهدف إضعاف الصف الوطني وإثارة الفتن والخصومات بين أبناء الوطن. وإننا لنفهم هذا من كلام ابن باديس في كلمته إلى أعضاء لجنة المؤتمر الإسلامي، حيث قال: «لا أعرف من معنى المؤتمر الإسلامي الجزائري، إلا أنه اتحاد جميع العناصر الجزائرية للمطالبة بالحقوق الواجبة لها على فرنسا... والمحافظة على المقومات اللازمة لها كأمة عربية مسلمة. وعلى هذه العقيدة دعوت للمؤتمر، وعليها عملت فيه، وعليها سأبقى عاملا فيه»[22]. فلا يهم أن يختلف الجزائريون فيما بينهم حول بعض القضايا المتعلقة بشؤونهم الخاصة، لكن المهم والأهم أن يكونوا يدا واحدة إذا تعلق الأمر بحقوقهم وحقوق دينهم ولغتهم ووطنهم، إذا ما تعرض شيء من ذلك للخطر والعدوان.. والخطر كل الخطر يكمن في الاشتغال بالصراع حول المسائل الجزئية البسيطة، والغفلة عن القضايا المصيرية المشتركة التي هي فعلا أسباب الأخوة والاتحاد والتعاون بين الجزائريين.

---

22 ـ آثار ابن باديس، ج: 6، ص: 186.

رابعا: جهود ابن باديس
في سبيل المحافظة على الوحدة الوطنية

إذا كان اهتمام ابن باديس بالوحدة الوطنية إنما يندرج ضمن اهتمامه الإصلاحي الأكبر، فإن جهوده في مجال حماية هذه الوحدة، تندرج هي الأخرى ضمن جهوده لتحقيق هدفه الأكبر، فكل جهد قدمه الرجل في إطار عمله الإصلاحي هو بالضرورة جهد لحماية الوحدة الوطنية والمحافظة عليها، والعكس صحيح. لكن مع ذلك يمكن أن نشير إلى بعض المجالات التي انصبت فيها جهود الشيخ حول الحفاظ على الوحدة الوطنية، ومنها:

أ - الوقوف في وجه المحاولات الاستعمارية الهادفة إلى زعزعة الوحدة الوطنية:

كثيرا ما حاول الاستعمار الفرنسي - ولا يزال - زرع بذور الخلاف والشقاق بين العناصر المختلفة المكوِّنَة للشعب الجزائري، فقد قسم هذا الشعب في البدء إلى قسمين: عربا وبربرا، وأجرى الدراسات «الفيزيولوجية» على البربر، وادعى بأنهم يشبهون في تكوينهم شعوب الغاليين، أسلاف الفرنسيين، وحاول إعادتهم إلى «أصلهم التاريخي» في زعمه، عن طريق فصل مناطقهم عن المناطق الجزائرية الأخرى، بسلسلة من الأنظمة والقوانين، وشجع عمليات فرنستهم وتنصيرهم، ولكنه فشل في محاولته، كما فشل أيضا في إذكاء التقسيمات العشائرية بين البربر أنفسهم، وذلك عندما وضع نظاما خاصا لكل وحدة عشائرية أو كل طائفة مذهبية من الوحدات العشائرية البربرية المعروفة في الجزائر، وهي: القبائل، الشاوية، الطوارق، والميزاب[23]..

وقد تصدى ابن باديس لهذه المحاولات، وأكد على ضرورة تمسك الشعب بعروبته وإسلاميته، فذلك كفيل بإفشال هذه المحاولات وردها على

---

23 - د/ تركي رابح: الشيخ عبد الحميد بن باديس، ص: 269.

أصحابها. لذلك سعى ـ رحمه الله ـ إلى توحيد الشعب الجزائري كله وراء هدف واضح ومحدد على أساس من رابطة الدين والعروبة. وقد تمكن الإمام أن يوحد صفوف الشعب ويكتل قواه الحية من أجل المحافظة على وحدته الوطنية من ناحية، وإفساد أهداف الاستعمار في بذر بذور الخلاف والشقاق بين الجزائريين من ناحية أخرى[24].

وكما وقف ابن باديس في وجه محاولات الاستعمار لهدم الوحدة الوطنية، فقد وقف كذلك سدا منيعا أمام بعض أذناب الاستعمار أولئك الذين حاولوا بث التفرقة بين الجزائريين عن طريق إثارة النعرات العرقية، فكتب يوما منددا بأحد دعاة التفرقة، ومدافعا عن وحدة الشعب، قائلا: «إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء وتؤلف بينهم في العُسْر واليُسْر، وتوحدهم في السراء والضراء، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر وأبوه الإسلام، وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محابرهم في مجالس الدرس لخدمة العلم.. فأي قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم؟ لولا الظنون الكواذب، والأماني الخوادع، ياعجبا لم يفترقوا وهم الأقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم القوي، كلا والله، بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم وقوة لرابطتهم»[25].

فالذي يجمع الجزائريين أكثر مما يفرقهم.. إن الذي يجمعهم هو مقومات ومميزات جنسيتهم ووطنيتهم التي لا يستطيع أحد محوها أو التأثير عليها. وفي هذا يقول: «نحن الأمة الجزائرية لنا جميع المقومات والمميزات لجنسيتنا القومية، وقد دلت تجارب الزمان والأحوال على أننا أشد الناس محافظة على هذه الجنسية القومية، وأننا ما زدنا على الزمان إلا قوة فيها

---

24 ـ م. ن، ص. 270

25 ـ آثار ابن باديس، ج: 5، ص: 459.

وتشبثا بأهدابها، وأنه من المستحيل إضعافنا فيها، فضلا عن إدماجنا أو محونا»[26].

ب ـ العمل على توحيد الشعائر الدينية:

لا يكتفي ابن باديس بهذا التأكيد على وحدة الشعب الجزائري ومواجهة المتنكرين لها، بل يعمل أيضا على تحقيق الوحدة الدينية بينهم من خلال توحيد الشعائر الدينية، وخاصة منها فريضة الصيام، وذلك من خلال استنكار مظاهر التفرقة التي كانت تظهر مع إقبال شهر رمضان من كل عام. وقد كتب يوما يخاطب المسلمين الجزائريين بعد أن استفحل بينهم الخلاف في شأن رؤية هلال رمضان، حيث كان بعضهم يصبح صائما والبعض الآخر يصبح مفطرا، سواء في أول شهر رمضان أو في آخره، مما جر إلى إثارة بعض النزاعات بين المسلمين في هذا الشأن، وكان مما قاله رحمه الله: «إن الخلاف كله شر، وشرُّه ما كان في الدين، وأشنعُ أنواعه وآلمها لكل ذي غيرة على دينه ما يقع كل عام بهذه الديار من اختلافكم في الصوم والإفطار...

إن مسألة الصوم والإفطار خرجت عندنا من باب الاعتبار الديني إلى باب التعصب الشخصي أو الحزبي، ومن آيات ذلك أن أصبحنا نرى في هذه الأمة من يصوم لأن فلانا مفطر، ومن يفطر لأن فلانا صائم. ومن القبيح الشنيع أن نجعل الدين ـ الذي هو مناط وحدتنا ومعقد ارتباطنا ـ موضوع اختلافنا ودائرة تفرقنا وسبب تفكك رابطتنا...

أيحسُنُ في الشرع أو يجمُلُ في الذوق أن يكون في القبيلة الواحدة مفطر وصائم، ثم لا يكفي ذلك حتى يكون في البيت الواحد مفطر وصائم.. أيحسن في الشرع أو يجمل في الذوق أن تكون في البلدة الواحدة أسرة مبتهجة بالعيد، بطالعه السعيد، كبارها يتقبلون التهاني والتبريكات، وصغارها يتقلبون في صنوف الأفراح والمسرات، بينما جارُ الجنب صائم

26 ـ م. ن، ج: 5، ص: 325 ـ 326.

ممسكٌ وأولادُه يتحرقون حسرة ويتميزون غيظا وإن كانوا لا يدرون على من؟ ولو كان الفرق يوما واحدا لهان الأمر، ولكنه اليومان والثلاثة. فلا عجب إذا كان هذا الحال من أسباب الضغائن والحُقُودِ تحملِها القبيلةُ للقبيلةِ والأسرةُ للأسرةِ ثم يحملها الأولاد للأولاد»[27].

وكما عمل ابن باديس على توحيد الشعائر الدينية المتفق عليها بين المسلمين، عمل كذلك على أن يحترم المسلمون بعضَهم بعضا في الشعائر البسيطة المختلف في بعض كيفياتها، من ذلك ما قام به من جهد لحسم الصراع الذي قام بين الإباضية والمالكية في شأن الأذان بمسجدي غرداية، حيث قام الإباضية بمنع المالكية من إقامة الأذان للصلاة في هذين المسجدين. وقد حاول ابن باديس أن يجد طريقة يجمع بها الفريقين ويجعل كُلاً منهما يتنازل للآخر عن بعض ما يراه حقا له، ما دامت القضية موضع خلاف وليست أمرا مقطوعا به في الدين، حفاظا على وحدتهم ومنعا لأسباب النزاع أن تشتت قوتهم. ومما كتبه ابن باديس تعليقا على هذه الحادثة، ومحاولة لإصلاح ما خلفته من آثار، قوله:

«... بَرَّأْنا الإباضية من تعصُّبِهِم على المالكية لأنهم مالكية، ولكننا من ناحية أخرى نرى أنه حق عليهم أن يرجعوا في هذه المسألة عن رأيهم، ويسمحوا لإخوانهم المالكية بالأذان.

أولا: إصلاحا لذات البين بين المسلمين، وهي في الإسلام من أول ما تجب وتتأكد المحافظة عليه والقيام به.

ثانيا: حفظا للوحدة الإسلامية بحفظ القلوب غير متصدعة بداء الفرقة القَتَّال المعدود في الإسلام من أكبر المحرمات المهلكات.

ثالثا: مجاملة لبقية إخوانهم المالكية بالقطر، الذين تربطهم بهم رابطة الدين والوطن والمصلحة»[28].

---

27 ـ آثار ابن باديس، ج: 6، ص: 68 ـ 69.

28 ـ آثار ابن باديس، ج: 5، ص: 453.

ج ـ العمل الشخصي في فك الخصومات وفض النزاعات:

حيث كان لا يفتأ يسعى إلى كل شقاق يبلغ خبرُه إليه، فيعمل على إنهاء أسبابه ومحاولة إقامة الصلح بين أطرافه، درءا للفتنة ودفعا لكل أسباب الشقاق، ومحاولة لتوجيه جهود الأمة كلها إلي مواجهة المعضلة الكبرى التي كان يعاني منها المجتمع الجزائري، ألا وهي معضلة الجهل والاستذلال. ولابن باديس في هذا الإطار مواقفه الكثيرة، ومنها موقفه المشهور في إخماد نار الفتنة بين اليهود والمسلمين في قسنطينة.

فقد "شهدت مدينة قسنطينة في صيف 1934 م، حوادث دامية بين اليهود والمسلمين، بسبب انتهاك أحد اليهود وهو «الياهو خليفي» حرمة المسجد واعتدائه على المصلين بالسب والشتم، وتوجيه الكلام البذيئ إليهم وإلى نبيهم ودينهم، فتحكم المسلمون في أعصابهم في البداية ولم يُجَاروه، ولكنه تمادى في غيه، واستمر يسب ويشتم ويفحش في القول، عند ذلك لجأ المسلمون إلى الشرطة وطالبوها بمعاقبته وتقديمه للمحاكمة، ولكن اليهود جيرانه تضامنوا معه، وامتنعوا عن تسليمه للشرطة، فزاده ذلك تعنتا وتجبرا، وانضم إليه جيرانه اليهود وأعلنوها هجمة شرسة على المسلمين، وراحوا يطلقون الرصاص على المتجمهرين والمارين، وكادت الفتنة تعم المدينة كلها لولا تدخل ابن باديس وبعض الأعيان الذين حرصوا على تهدئة الوضع.. وكان لابن باديس دور كبير في تهدئة الجموع الهائجة وإخماد نار الفتنة، وسجل في ذلك مواقف إنسانية شجاعة، إذْ استطاع أن يجمع المسلمين ويقنعهم بتحكيم العقل، وعدم مسايرة الاستفزازات اليهودية..."[29].

د ـ الترفع عن مجاراة الخصوم فيما يبثونه من أسباب الفرقة والشقاق:

فابن باديس باعتباره رئيسا لجمعية العلماء، كان يدرك جيدا خطورة

29 ـ فضيل و رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص: 141 ـ 142.

السير في خط الصراع والنزاع مع بقية التنظيمات الحزبية التي كانت موجودة في ذلك الحين، وهو يعلم مدى حرص الحكومة الاستعمارية الفرنسية على تأجيج مثل هذه الصراعات، لما فيها من هدم لأسباب الوحدة والتعاون بين التنظيمات الوطنية الجزائرية واستمرار للسيطرة الفرنسية على الوضع. لذلك عمل ما وسعه الجهد أن يجنب جمعيته الوقوع في صراعات مع بقية التنظيمات الجزائرية الأخرى، بل عمل من جهته على التعاون معها وإشعارها بأنه وجمعيتَه يقاسمانها التفكير في تحرير الوطن وتخليصه من الاستعمار، شعاره في ذلك: «لنعمل معا فيما اتفقنا فيه، وليعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه». ورغم محاولات الاستفزاز التي شنتها بعض التنظيمات الحزبية الوطنية تجاه الشيخ وجمعيته، إلا أنه أعلن صراحة أنه لا ولن يجاريها في تلك الاستفزازات ولن يُدير ظهره ولا ظهر جمعيته إليها لمواجهتها والدخول في صراعات معها.

وقد صرح ابن باديس يوما بموقف جمعيته من بقية التنظيمات، فقال: «أما موقف الجمعية مع خصومها، فإنها تعلم أن الأمة اليوم تجتاز طَوْرًا من أَشَقِّ أطوارها وأخطرها، فهي تتناسى كل خصومة، ولا تنبذ إلا أولئك الرؤوس، رؤوس الباطل والضلال الذين لا تجدهم الأمة في أيام محنتها إلا بلاء عليها... ولا يتحركون إلا إذا حُرِّكُوا لغايات عكس غاياتها»[30].

فابن باديس كان يدعو غيرَه من زعماء التنظيمات الوطنية إلى ترك أسباب الاختلاف التي يمكن أن تفرقهم، وإلى توحيد الوجهة بتنظيم الجبهة الوطنية ضمن نقطة الالتقاء المشتركة وهي العمل ضد الاستعمار[31].

خاتمة الدراسة

تلك - إذن - بعض جهود ابن باديس رحمه الله في حماية الوحدة الوطنية والذود عن حياضها، وترسيخ مقوماتها.. ولقد آتت تلك الجهود أكلها

30 - آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج: 4، ص: 207.

31 - محمد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، ص: 65 - 66.

وأثمرت الخير الكثير، إن على صعيد الوحدة الوطنية أو على سائر الأصعدة الأخرى التي ناضل فيها ابن باديس وعمل من خلالها على انتشال المجتمع الجزائري من وهدة الجهل والتخلف والاستغلال..

والحق أنه ما كان لرجل مثل ابن باديس، في ضعف بنيته وقلة حيلته، أن يحقق تلك المنجزات الضخمة لولا إيمانه العميق بالله عز وجل، وإيمانه بتناغم الشعب الجزائري مع دعوته وحركته الإصلاحية، ذلك "الإيمان هو الذي ساعَدَه على النجاح، حتى استطاع أن يهزم خصوم القضية الوطنية وخصوم اللغة العربية، وخصوم الإسلام في الجزائر، ويزيحهم جميعا واحدا بعد آخر، وبذلك خرجت الشخصية الجزائرية، بكل مقوماتها الدينية واللغوية والوطنية، ظافرة منتصرة على أعدائها، وسارت الجزائر نحو تحقيق هدفها الكبير في الحرية والاستقلال"[32].

إن هذا الإيمان هو ما نحتاجه اليوم، ونحن نعمل على الحفاظ على مقومات وحدتنا الوطنية وعناصر شخصيتنا الحضارية، وهذا الإيمان لن يتحقق في نفوسنا ولن نرى آثاره في حياتنا إلا إذا وقر في قلوبنا حُبًا لوطننا وشعوراً بانتمائنا التاريخي والحضاري الذي ينبغي أن نفخر به ونعتز، لا أن نشعر بالدون والنقص، حُبٌ يدفعنا إلى مزيد من العطاء والعمل كلٌّ في موقعه ومن خلال تخصصه على أن نعود بقاطرة وطننا إلى السكة الصحيحة.. فلنأخذ من ابن باديس ذلك الإيمان وما اقترن به من حب وإخلاص لله والوطن، وإن لم نستطع، أو لم يستطع بعضنا، فعلى الأقل لا نعمل على تخريب هذا الوطن وهدم كيانه وإلغاء مقوماته، كما هو ديدن الكثيرين اليوم ممن مُسخت شخصياتهم وأفكارهم وفقدوا قيمهم وأخلاقهم، ولم يعد لهم من ذلك كله إلا الاسم والتواجد الجغرافي..

رحم الله ابن باديس، وأعلى قدره في الخالدين، ووفقنا إلى تقفي آثاره والسير على منهجه، الذي هو منهج الأنبياء المكرمين والعلماء العاملين.

---

32 ـ د/ تركي رابح: ابن باديس ونشأة الحركة الإصلاحية في الجزائر. مجلة الأصالة، س: 4، ع: 24، ربيع الأول ـ ربيع الثاني 1395 هـ، مارس ـ أبريل 1975 م، ص: 39.

المصادر والمراجع

1 ـ آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، الجزء الثالث (رجال السلف ونساؤه ـ تراجم أعلام ـ القصص ـ الفتاوى). من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية ـ الجزائر، طبع: دار البعث ـ قسنطينة. ط: ١، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٤ م.

2 ـ آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، الجزء الرابع (التربية والتعليم ـ الخطب ـ الرحلات). من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية ـ الجزائر، طبع: دار البعث ـ قسنطينة. ط: ١، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥ م.

3 ـ آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، الجزء الخامس (الإصلاح ـ السياسة ـ الاجتماعيات ـ التاريخ ـ البرقيات والاحتجاجات ـ الفواتح والخواتم). من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية ـ الجزائر، طبع: دار البعث ـ قسنطينة. ط: ١، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م.

4 ـ آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، الجزء السادس (متفرقات). من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية ـ الجزائر، طبع: دار البعث ـ قسنطينة. ط: ١، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤ م.

5 ـ أصول الفقه.. آيات وأحاديث الأحكام، إملاء: الأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس، تعليق وتحقيق: محمد الحسن فضلاء، نشر: دار البعث ـ قسنطينة، ط: ١، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م.

6 ـ إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، تأليف: محمد الصالح رمضان وعبد القادر فضيل، نشر: دار الأمة ـ الجزائر، ط: ١، ١٩٩٨ م.

7 ـ الإمام ابن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية (١٨٨٩ ـ ١٩٤٠م)، تأليف: الزبير بن رحال. نشر: دار الهدى ـ عين مليلة. ط: ١، ١٩٩٧ م.

8 ـ ابن باديس ونشأة الحركة الإصلاحية في الجزائر، مقال بقلم: تركي رابح، في مجلة الأصالة ـ الجزائر، السنة الرابعة، العدد: ٢٤، ربيع الأول ـ ربيع الثاني ١٣٩٥ هـ/ مارس ـ أبريل ١٩٧٥ م.

9 ـ البعد المقاصدي في منهج التغيير عند الإمام عبد الحميد بن باديس، دراسة بقلم: مسعود فلوسي، مجلة الموافقات، المعهد الوطني للتعليم العالي في أصول الدين ـ الجزائر، السنة السادسة، العدد السادس، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧، ١٩٩٨ م.

10 ـ تفسير ابن باديس، للإمام العلامة عبد الحمد بن باديس. نشر: مؤسسة المعارف ـ وهران، بدون تاريخ.

11 ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، تأليف: أحمد الخطيب، نشر: المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر، ١٩٨٥ م.

12 ـ الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، تأليف: تركي رابح، نشر: المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر، ط: ٤، ١٩٨٤م.

13 ـ صدى وفاة ابن باديس في التقارير الفرنسية والصحافة الأهلية عام ١٩٤٠، مقال بقلم: عبد الكريم أبو الصفصاف، في مجلة الأصالة ـ الجزائر، السنة الثامنة، العدد: ٦٨ ـ ٦٩، جمادي الأولى ـ جمادى الآخرة ١٣٩٩ هـ/ أبريل ـ ماي ١٩٧٩ م.

14 ـ عبد الحميد بن باديس الرجل العظيم، مقال بقلم: أحمد توفيق المدني، في مجلة الأصالة ـ الجزائر، السنة السادسة، العدد ٤٤، ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ/ أبريل ١٩٧٧ م.

15 ـ عبد الحميد بن باديس.. العالم الرباني والزعيم السياسي، تأليف: مازن صلاح مطبقاني، نشر: دار القلم ـ دمشق، سلسلة أعلام

المسلمين، رقم: ٢٨، ط: ٢، ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م.

16 ـ عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، تأليف: مصطفى محمد حميداتو، تقديم: عمر عبيد حسنة، نشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ قطر، سلسلة كتاب الأمة، العدد: ٥٧، ط: ١، محرم ١٤١٨ هـ، مايو/ يونيو ١٩٩٧ م.

17 ـ العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، للأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس. رواية وتعليق: محمد الصالح رمضان. النار: مكتبة الشركة الجزائرية ـ الجزائر. ط: ٢، ١٩٦٦ م.

18 ـ لمحات من حياة الشيخ ابن باديس، مقال بقلم: علي مرحوم، مجلة الأصالة ـ الجزائر، السنة الرابعة، العدد: ٢٤، ربيع الأول ـ ربيع الثاني ١٣٩٥ هـ/ مارس ـ أبريل ١٩٧٥ م.

19 ـ مبادئ الأصول، إملاء: الإمام عبد الحميد بن باديس، تحقيق: عمار الطالبي، نشر: المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر، ط: ٢، ١٩٨٨ م.

20 ـ مجالس التذكير من حديث البشير النذير، للإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس. من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، طبع: دار البعث ـ قسنطينة. ط: ١، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.

21 ـ مقدمة مجلة الشهاب، بقلم: الشيخ عبد الرحمن شيبان، نشر: دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط: ١، ٢٠٠٠ م.

22 ـ منهج التفسير عند الشيخين عبد الحميد بن باديس وإبراهيم بن عمر بيوض، إعداد: نادية وزناجي. بحث نال درجة الماجستير في التفسير من المعهد الوطني للتعليم العالي للعلوم الإسلامية ـ باتنة، ١٤١٨ ـ ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ ـ ١٩٩٩ م.

كتب منشورة للمؤلف

1 ـ القواعد الأصولية؛ تحديد وتأصيل. ط: 1، مطبعة قرفي ـ باتنة، 1415 هـ ـ1995 م. ط: 2، مكتبة وهبة ـ القاهرة، 1423 هـ ـ2003 م.

2 ـ الإمام محمد الغزالي. غصن باسق في شجرة الخلود. ط: 1، دار ريحانة ـ الجزائر، 1419 هـ ـ 1999 م.

3 ـ الشيخ محمد الغزالي.. رائد منهج التفسير الموضوعي في العصر الحديث. ط: 1، دار الصحوة ـ القاهرة، دار الوفاء ـ المنصورة. 1421 هـ ـ 2000 م.

4 ـ الإسلام والاستبداد السياسي، للشيخ محمد الغزالي (تقديم وتخريج وتعليق). ط: 1، دار ريحانة ـ الجزائر. 1420 هـ ـ 2000 م.

5 ـ حصاد الغرور، للشيخ محمد الغزالي (تقديم وتعليق). ط: 1، دار ريحانة ـ الجزائر، 1421 هـ ـ 2001 م.

6 ـ الجدل عند الأصوليين بين النظرية والتطبيق (رسالة دكتوراه دولة). ط: 1، مكتبة الرشد ـ الرياض، 1424 هـ ـ 2003 م.

7 ـ مدرسة المتكلمين ومنهجها في دراسة القواعد الأصولية (رسالة ماجستير). ط: 1، مكتبة الرشد ـ الرياض، 1425 هـ ـ 2004 م.

8 ـ مذكرات الرائد مصطفى مراردة: شهادات ومواقف من مسيرة الثورة في الولاية الأولى (إعداد وتحرير). ط: 1، دار الهدى ـ عين مليلة، 1424 هـ ـ 2003 م.

فهرس الموضوعات

الفصل الأول:

لمحات من حياة وأعمال الإمام عبد الحميد بن باديس

52 - 11

الفصل الثاني:
فقه المقاصد الشرعية عند ابن باديس
وأثره في منهجه الإصلاحي
53 ـ 114

الفصل الثالث:

الوحدة الوطنية الجزائرية في فكر ابن باديس

وجهوده في المحافظة عليها

* * *





دار قرطبة